دكتور جورج حبيب بباوي

موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

العذراء حواء الثانية

شرح آباء الكنيسة الجامعة

دراسة في التسبحة السنوية

العذراء حواء الثانية

شرح آباء الكنيسة الجامعة

دراسة في التسبحة السنوية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٢

جدول المحتويات

تقديم..... ٤
كلمة لا بُد منها في مقدمة هذه الدراسة ٦
الفصل الأول: العذراء حواء الثانية –١ ..... ٩
عتاب: ٩
الإبصلمودية السنوية وماذا تعني بالنسبة لنا: ١٠
العلاقة بين اللاهوت والتسبيح ١٠
التسابيح الخاصة بالعذراء وماذا تعني: ١٤
الفصل الثاني: العذراء حواء الثانية– ٢ ..... ١٨
لماذا اختار الآباء لقب حواء، وماذا يعني؟ ٢٠
وقفة قصيرة مع شاعر السريان مار إفرام: ٢٧
حواء أُم كل حي، والعذراء أُم الحياة نفسها: ٢٩
آدم الثاني وحواء الثانية: ٣١
سيمفونية الخلاص – بقلم أثناسيوس الرسولي: ٣٥
الفصل الثالث: العذراء حواء الثانية– ٣ ..... ٣٧
العذراء حواء الثانية في التسبحة السنوية: ٣٩
الفصل الرابع: "السلام لكِ يا مريم"..... ٤٢

المعنى الدقيق للصيغة: ٤٢

"السلام لك يا ممتلئة نعمة" بشرح القديس كيرلس عمود الدين: ٤٨

عظة القديس كيرلس في كنيسة والدة الإله أثناء جلسات مجمع أفسس المسكوني الثالث:..... ٥٠

الفصل الخامس: حواء الثانية والصراع ضد النسطورية ٥٢

شرح القديس كيرلس:..... ٥٤

الفصل السادس: صلوات وألحان قديمة عن العذراء مريم ٦٠

العلاقة بين التفاسير والصلوات والألحان: ٦٠

أصالة الألحان عن العذراء في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية: ٦١

تقديم

سبق لموقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية أن نشر في ديسمبر ٢٠٠٧ دراسةً للدكتور جورج بعنوان "**العذراء في التسبحة السنوية، شرح آباء الكنيسة الجامعة**"، غير أننا اكتشفنا سلسلةً من ثلاث مقالات -تتناول ذات الموضوع- بعنوان "العذراء حواء الثانية" نُشِرت في مجلة مرقس في أعداد أغسطس وسبتمبر ونوفمبر ١٩٧٤، لم تكن تحت أيدينا وقت أن نشرنا الدراسة المنوَّه عنها، وتبين لنا أن المقال الثاني في هذه السلسلة هو ذاته الفصل الأول من الدراسة المشار إليها بعاليه فيما عدا ما جرى عليه من إعادة النظر في ترجمة نصوص الآباء التي اشتمل عليها هذا المقال، كما وجدنا بضع صفحات بخط الدكتور عن شرح الآباء لعبارة "السلام لك يا مريم"، اشتملت على بعض نصوصٍ للآباء لم يتم نشرها من قبل فرأينا إضافتها إلى الفصل الرابع من هذه الدراسة لأنها تعالج ذات موضوع الفصل. كما رأينا ضم المقالة الأولى والثالثة إلى الدراسة المذكورة وإعادة ترتيب الفصول بحيث تصبح الدراسة أكثر اكتمالًا وفائدةً. كما اكتشفنا مقالًا آخر بعنوان "صلوات وألحان قديمة عن العذراء مريم" كان الدكتور جورج قد نشره بمناسبة صوم وعيد السيدة العذراء في مجلة مرقس في العدد ١٧٣ الصادر في أغسطس ١٩٧٥، رأينا أن ندرجه في الفصل السادس كخاتمة لهذه الدراسة لما ينطوي عليه من أهمية وفائدة كبيرتين.

نطلب من الرب يسوع المسيح بشفاعة أُمنا العذراء حواء الثانية أن يجعل هذه الدراسة سبب بركة للكثيرين الذين يعشقون تسبحة الكنيسة، وأن تكون بدايةً لجهدٍ أكبر يتناول نصوص التسبحة بمزيد من الدراسة والكشف عن الكنوز المخبأة فيها وفي غيرها من النصوص الليتورجية التي تفخر بها كنيستنا أُم الشهداء.

أخيرًا، نطلب صلواتكم عنّا حتى يعطينا الرب القدرة على تكميل العمل لمجد اسمه القدوس.

أسرة موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية

صوم السيدة العذراء – أغسطس ٢٠٢٢

كلمة لا بُد منها في مقدمة هذه الدراسة

تسابيح الكنيسة ترافق رحلة الكنيسة الجامعة في غربتها على الأرض ... هذه الرحلة تواجه مشاكل الهرطقات، والصراع الروحي الذي تدخله الكنيسة مع قوات الظلمة ومع المعتقدات الخاطئة. وكلما اجتمعت الكنيسة للتسبيح، فهي تجمع قديسيها الذين على الأرض، وقديسيها الذين في السماء. وكل عقائدها وشكرها وتمجيدها إنما ينصب في تسابيح الكنيسة، بل وتعكسه كنورٍ صافٍ متلألئ بالفرح والانتصار وبالاعتقاد القويم أيضًا.

وهذا ما نراه بكل وضوح في صلوات التسبحة، وفي القطع الخاصة بالعذراء والتي يقف أمامها الإنسان، ليس كقطعة تاريخية ميتة، بل كنبضة حياة قويمة آتية من أعماق التاريخ محمَّلة بثمرة الإيمان الناضجة، وتفوح منها رائحة الحياة الجديد في المسيح. ولذلك، فإننا نقترب من هيكل الكنيسة الجامعة الذي وقف فيه آباء وشعراء ونساك، قادهم الإيمان الأرثوذكسي إلى هذه الصياغات الجميلة التي تحتاج إلى ترجمة عربية جيدة، وإلى إيقاع موسيقي معاصر بجانب الإيقاع الموسيقي الذي وصلنا من التراث.

نحن هنا أمام قطعة نادرة تبدأ بسقوط آدم حيث تشرح قطع يوم الاثنين

المعصية ونتائجها وتتدرج حتى مجيء المسيح وموته وقيامته التي تصل إلى الذروة في قطع يوم القيامة أي يوم الأحد حيث تحتفل الكنيسة بالإفخارستيا ويقف الكل أمام المذبح لتناول الجسد المحيي والدم الكريم، ونصبح فعلًا كلُ واحدٍ منا "الخشب الذي لا يسوَّس"، أي البشرية عديمة الفساد.

هناك ثلاثةُ عناصر لا يجب أن نفصلها عن بعضها: المسيح، وأُمه والدة الإله، والنَّفْسُ التي قَبِلت الإيمان بالتجسد.

هذه العناصر الثلاثة يجمعها التسبيح الواحد الذي يقدِّم لنا سر حضور المسيح متجسدًا، وما فعله في العذراء وما أفاضه عليها من نِعَمٍ وعطايا لتكون نموذجًا لما سوف تناله الكنيسة وما يناله كل مؤمن. إذن نحن نسبِّح الله ونمجده وأمامنا نموذجًا حيًّا فريدًا لعطاياه الإلهية، وهي العذراء القديسة مريم. وكل تسبيح يقدَّم للعذراء إنما يقدَّم من أجل التجسد، فهو عمل الله الفائق الذي فيه وبه أحيا الله الجنس البشري.

إذن، تكريم العذراء يقع في دائرة الخلاص؛ لأنها الشاهد البشري الحقيقي على حقيقة وصحة تجسد ابن الله. فهي كما يسميها القديس كيرلس عمود الدين الوسيلة الإنسانية التي بها دخل ابنُ الله حياة البشر.

هذه الدراسة تأخذ أهم الموضوعات التي وردت في التسبحة السنوية الخاصة بالعذراء. ولم نكتب في موضوع *Theotokos* لأن غيرنا قد كتب فيه، وصار موضوعًا معروفًا.

وقد اخترنا بعض قطع التسبحة السنوية، وبعض قطع تسبحة كيهك والتزمنا بدراسة النصوص القبطية فقط، أمَّا ما جاء باللغة العربية، فهو موضوع آخر قد يجد فيه غيرنا ما هو مفيد.

إلهنا الذي جاء إلينا متجسدًا من العذراء القديسة مريم يضع في قلوبنا بذرة التسبيح والصلاة لكي ننال بركةً ونعمةً وشركةً مع جماعة القديسين.

دكتور

جورج حبيب بباوي

طنطا (عيد والدة الإله ١٩٨٢)

الفصل الأول

العذراء حواء الثانية – ١[١]

عتاب:

حظيت "الإبصلمودية السنوية" بكتابٍ واحد أو كتابين في عصرنا بعد جفاءٍ امتد من القرن الخامس حتى القرن العشرين. وهو جفاءٌ له ما يبرره، وهو تجاهل التراث المصري المسيحي الممتد عبر ١٩٠٠ سنة تفصل بين فتراته الثلاث، لغاتٌ ثلاث لا صلة لغوية بينها؛ وهي اليونانية التي كتب بها آباء الإسكندرية حتى القرن الخامس فالقبطية والعربية. وإذا كان هذا الجيل قد استيقظ على مشاعل النهضة القبطية المعاصرة إلَّا أنه ما زال بعيدًا ولا مبالغة إذا قلت، جدًا، عن تراث الكنيسة القبطية الذي لا زال سجين المتاحف والأديرة لا يجد مَن يتخصص لدراسته إلَّا فئةً من الأجانب في جامعات أوروبا وأمريكا تستهويها هذه الدراسة وتجد فيها إشباعًا عميقًا لاحتياجات العقل والروح. وكما صدر نداءٌ في مقدمة الطبعة الأولى من كتاب "حياة الصلاة" بالعودة إلى الآباء. نكرر هذا النداء مرةً ثانيةً راجين أن تفتح الرئاسة الكنسية أبواب العلم أمام شباب الكنيسة للدراسة الجادة وإتقان اللغة اليونانية، وهو عملٌ أُوصدت في وجهه الأبواب لأسباب غير واضحة.

---

(١) مجلة مرقس، العدد ١٦٣ أغسطس ١٩٧٤ ص ٢٧ وما بعدها.

الإبصلمودية السنوية وماذا تعني بالنسبة لنا:

هي كتابٌ يتحير المؤرخ في تحديد تاريخه، ذلك أنه شأن كل الكتب الكنسية ينمو مع الكنيسة يرافقها في صراعاتها اللاهوتية والروحية مع الهرطقات والعالم الحاضر. ولذلك هناك أجزاء تعود إلى أيام أكليمنضس وأوريجينوس سنة ١٩٠م وأجزاء تعود إلى القرن الثالث والرابع، بل والخامس. وليس في هذا ما يزعج بالمرة، ذلك أن الكنيسة ليست كنيسة القرن الأول والثاني .. الخ فقط بل هي كنيسة كل العصور، وكتبها الطقسية واللاهوتية ترافقها، تسجِّل أناشيدها وصلواتها انتصار شهدائها على العالم وقديسيها على الانحرافات والأضاليل اللاهوتية. وكلما أحرزت الكنيسة نصرًا كلما سجَّلت هذا النصر في عبادتها لأنه نصرٌ لكل الأجيال.

العلاقة بين اللاهوت والتسبيح

الكنيسة هي "فردوس المسيح" على الأرض[١]، هذا الفردوس ليس حديقةً مثل الحديقة الأولى، بل هو "سُكنى الله مع البشر الذين أحبهم وضمَّهم إليه بعد ما قدَّسهم وختمهم بروحه القدوس لكي يُطهَّروا ويستنيروا ويأخذوا قوةً ومواعيد تجعلهم لا يسكنون مع الله فقط، بل يسكن هو فيهم ويصيرون شركاء مجده"[٢]. الكنيسة ليست هي المباني، بل المؤمنين المتَّحدين معًا في الإيمان الواحد ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية[٣]. وعندما يجتمع المؤمنون معًا فهم لا يجتمعون من أجل عملٍ خاص، بل هم مع الله الآب في ابنه يسوع المسيح وبالروح القدس. وعندما نجتمع مع الله، لا

---

(١) أثناسيوس، ضد أريوس ١: ١.

(٢) كيرلس الاسكندري تفسير سفر التكوين ٨: ١١.

(٣) كيرلس الاسكندري، المرجع السابق ١٣: ١٠.

ندخل إلى حضرة الله ومعنا أعظم الكلمات والمواعظ والموسيقى. نحن أصلًا لا نملك أن نتحدث مع الله، ولكن الله أظهر محبته نحونا بشكلٍ فائق إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح عنّا (رو ٥: ٨). والقديس كيرلس يقول: "إن اجتماع الكنائس هو اجتماع الإيمان (أي أن الإيمان هو الذي يجمعنا مع الله) وهو حديثنا مع الله"(١). **ومَن يقرأ سفر الرؤيا، وهو النموذج الأصيل للعبادة المسيحية يكتشف أصالة هذا المبدأ اللاهوتي الهام؛ وهو أن السمائيين عندما يتحدثون مع الله وعندما يسبّحونه، فهم يذكرون فداء الله وحمايته لهم ومحبة الحَمَل الذي غَلَبَ وأخذ السفر وفكَّ ختومه.** وعندما يحين الوقت لنقرأ تفاسير الآباء لسفر الرؤيا سوف نكتشف أن كل أحداث السفر تحكمها مبادئ لاهوتية وأن البشرية لا تملك إلَّا الحديث عن الآب وعن ابنه يسوع المسيح.

إذًا نحن نسبّح الله لاهوتيًّا بمعنى أننا نمجّده ونشكره على مجيء ابنه الوحيد يسوع المسيح وعلى عطايا الروح القدس. إذا أهملنا هذه الأمور، فماذا تبقَّى لنا، وبأي لسانٍ يمكننا أن نسبّح الله؟ عندما كان يوحنا مع السمائيين وسمع الملاك يقول: "مَن هو مستحق أن يفتح السفر ويفك ختومه. فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض .. أن يفتح السفر ولا أن ينظر إليه فصرت أنا أبكي" (رؤ ٥: ٢-٤). التسبيح مستحيلٌ بدون الفداء، ولذلك بعد أن أخذ الحَمَل السفر "مستحقٌ هو الحمل المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض ... سمعتها قائلةً للجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة .. (رؤ ٥: ١٢ – ١٤). ولذلك يتميز التسبيح

(١) السجود والعبادة لله بالروح والحق ٥: ٣.

المسيحي بأنه تسبيحٌ على أعمال الله الخلاصية. هو شكرٌ على ما قدَّمه الله لنا في ابنه يسوع المسيح. ويتميز التسبيح في الكنيسة القبطية بأنه مأخوذٌ كله من الكتاب المقدس، فليس في القداس كلمةٌ واحدةٌ إلَّا وهي مأخوذة من أسفار الكتاب المقدس أو انعكاسًا لنصٍّ من نصوصه وهذه الظاهرة وصفها عالم دراسات قبطي معاصر بأنها تخص الكنيسة القبطية وحدها التي تميَّزت بأنها تدخل إلى الله ومعها كلمات الله وحده التي تسميها الإبصلمودية "أنفاس الله".

فإذا كنّا نسبِّح الله لاهوتيًا على إعلانات محبته، فإن هذا التسبيح وُصِفَ بأنه **ذبيحة:** "أطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدِّموا أجسادكم ذبيحةً حيّةً مقدسةً مرضيةً عند الله عبادتكم العقلية" (رومية ١٢: ١)، أو حسب كلمات القداس "ذبيحة التسبيح"[١].

كيف يمكن أن يصبح التسبيح ذبيحةً، أي أن يتحول إلى علاقة لاهوتية؟ لقد حظى هذا النص باهتمام كبير لدى مفسري الكتاب المقدس من الآباء وأكَّدوا أن التسبيح حلَّ محل ذبائح العهد القديم، وقد تحقق هذا للأسباب الآتية:

١– إن المؤمن جسدًا وروحًا بعد المعمودية هو هيكل الله الذي بناه المسيح جديدًا من الطبيعة القديمة الميتة. ولقد صار المؤمن "مسيحًا" Christos لأنه مُسح بالروح القدس وصار شريكًا للمسيح في مسحته.

٢– إننا في المسيح نتحول إلى طبيعته الجديدة غير الفاسدة عندما نتَّحد بجسده ودمه في الإفخارستيا، نصبح حقًا أغصانًا في الكرمة (يوحنا ١٥: ١–٣).

---

(١) استخدم طقس المعمودية نص أوشية القرابين على هذا النحو "باسم الآب والابن وشكر شعبك وعبيدك الذين قدموا بنيهم على مذبحك المقدس الناطق السمائي اقبلهم اليك رائحة بخور تدخل إلى عظمتك بواسطة ملائكتك ورؤساء ملائكتك".

تحوّلُنا ذبيحةُ الإفخارستيا إلى ذبائح، أي تأخذ من الذبيحة قوة ليصبح كلٌّ منّا ذبيحةً مقبولةً.

ولعل تأكيد الرسول على أهمية أن نصبح ذبائح مقبولة أو أن تكون عبادتنا العقلية –تمييزًا لها عن العبادة في العهد القديم التي لعب فيها الحيوان من الذبائح دورًا هامًا– مقبولةً، أنها لا تُقبَل إلَّا في المسيح[١]. ولا تصبح عبادتنا ذبائح إلَّا لأننا أصلًا اتَّحدنا بالمسيح الذي هو الذبيحة بنوعٍ ممتاز. ولاهوت الإسكندرية العظيم كما عبَّر عنه آباء الإسكندرية يقول في سطرٍ واحدٍ: "**نحن نصبح في المسيح كل ما أصبحه المسيح**"[٢]. هو ذبيحةٌ ونحن ذبائح، هو كاهنٌ ونحن لنا كهنوت، هو راعٍ وها رعاتنا ظاهرون على المنابر، هو ملكٌ وقد ملك معه الشهداء والتائبون. هو التسبحة الجديدة، لأن الرسول يقول: "فلنقدم في المسيح كل حين لله ذبيحة التسبيح أي ثمر شفاه معترفة باسمه" (عبرانيين ١٣: ١٥)، هو في وسطنا، ولذلك يقول الرسول أيضًا: "أُخبر باسمك اخوتي وفي وسط الكنيسة أُسبِّحك"، فهو في وسطنا لأنه "إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة هناك أكون في وسطهم" (متى ١٨: ٢٠). لكنه كيف يسبّح معنا؟ إنه فينا على نحوٍ خاص، لأننا من لحمه وعظامه (أفسس ٥: ٣٠) وحياته الجديدة التي سكبها فينا بقوة حتى أنها نزعت الحياة القديمة، هي التي نقدِّمها لله في شكرٍ سبق وأعطاه هو عنّا: "ها أنا والأولاد الذي أعطانيهم الله، فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضًا كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس" (عبرانيين ٢: ١٢ – ١٤). ولذلك

---

(١) كيرلس الاسكندري؛ تفسير سفر اللاويين ٤: ١٣.

(٢) العلامة أوريجينوس؛ تفسير إنجيل يوحنا ٣: ١٨.

عندما يتحدث الرسول عن التسبحة الجديدة[١] التي سوف تسبِّح بها الكنيسةُ الربَّ، فإن هذه التسبحة لم تبدأ ونحن في حالة العبودية (عبرانيين ٢: ١٥)، بل بعد أن تحقَّق العتق وصرنا أحرارًا وأكلنا الفصح الجديد يسوع المسيح (١كورنثوس ٥: ٧). ولذلك وحده تمنع الكنيسة القبطية كل أحاديث مهما كانت أثناء توزيع الجسد والإصرار على ترتيل المزمور ١٥٠ هو تأكيد كمال الخلاص ونوال المواعيد الإلهية. وما أبشع ما يحدث عندنا الآن عندما يهتز النظام وتسود الفوضى، بل تكثر الأحاديث أحيانًا بين الكهنة والشعب أو بين الكهنة وبعضهم البعض، رغم أن هذه اللحظة هي أرهب اللحظات. تُرى هل نسى الكهنة الوصية التي سمعوها أثناء الرسامة: "تحقَّق أن الشارورييم والسيرافيم وقوفٌ بالمخافة والارتعاد، وكن عارفًا بمقدار مَن هو ذبيحٌ بين يديك. وأنه المسيح عمانوئيل الذي أسلم ذاته عنك"[٢].

ولعل الطامة الكبرى هي العودة إلى كلمات التعليم والوعظ في وقتٍ –أثناء التناول– لا يحسُن فيه الوعظ بالمرة، بل الشكر والتسبيح لأن الخلاص قد تحقق.

التسابيح الخاصة بالعذراء وماذا تعني:

"نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء .."، هكذا علَّمنا القديس كيرلس الاسكندري[٣] أن نبدأ الاعتراف بالإيمان الذي وضعه آباء الكنيسة الجامعة. وفي الحقيقة تُعدُّ العذراء مريم مرآةٌ يكتشِف فيها المؤمنون قذارة الهرطقات التي لصقت بهم، وباتفاقٍ واحدٍ يعتبر الآباء الشرقيون أن العذراء هي مرجع أو مقياس لصحة الإيمان نفسه على النحو الآتي:

---

(١) لاحظ أن مزامير الساعة التاسعة، وهي مناسبة موت المسيح تبدأ بالحديث عن التسبحة الجديدة.

(٢) كتابات الرسامات، ص ١٠٠ طبعة ١٩٥١.

(٣) استقر في تقليد الكنيسة السريانية الأرثوذكسية أن مقدمة قانون الإيمان لكيرلس عامود الدين.

١– إذا كنت لا تؤمن بميلاد المسيح من العذراء بدون زرع بشر، فكيف تؤمن بالميلاد الجديد من فوق بدون زرع بشر ومن الله مباشرةً (يوحنا ١: ١٢)؟ الله ولدنا من جديد بطريقةٍ معجزيةٍ فائقةٍ للطبيعة كما سبق ووُلِدَ هو من العذراء بطريقة معجزية من الروح القدس. أليس ميلادنا الروحي من الروح القدس؟ هكذا وضع الآباء هذا السؤال الاعتراضي لهراطقة القرون الأولى الذين لم يعجبهم ميلاد المسيح من العذراء.

٢– إذا كنت لا يعجبك ميلاد المسيح وحقيقة ناسوته المشابه لنا في كل شيء (ما عدا الخطيئة)، فإن مريم هي الدليل المادي الملموس على حقيقة إنسانية المسيح، ولذلك يستحيل الإيمان بإنسانية المسيح الكاملة إذا أسقطنا أو نسينا مريم العذراء (رسائل أغناطيوس الأنطاكي).

٣– هل المسيح هو الإله المتجسد؟ إلهٌ وإنسانٌ، والمسيح الواحد غير المفترق إلى إلهٍ وإنسان؟ لماذا ترفض الاعتراف بأن العذراء ولَدَت لنا الكلمة بالحقيقة؟ أنت ترفض هذا لأنك تناضل بشدة ضد لقب والدة الإله، وهو لم يُعطَ لتكريم العذراء. وإنما أُعطي لها من أجل التجسد (المقالات الخمس ضد نسطور لكيرلس عامود الدين). ولذلك، كلما كرَّمنا العذراء كلما أكَّدنا بذلك حقيقة التجسد وحقيقة اتحاد اللاهوت بالناسوت[١] وكلاهما ذَوا أهميةٍ خاصةٍ للإيمان المسيحي.

من أجل ذلك دخلت العذراء تسابيح الكنيسة الجامعة كأحد شهود الخلاص، بل كعلامةٍ إنسانيةٍ على أن الخلاص تحقق. وعندما حلَّ اللاهوت في

(١) راجع مقال مباحثات الوحدة مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، مرقس عدد مايو ١٩٧٤.

الأحشاء البتولية كان هذا إيذانًا بأحداث هائلة آتية:

١ – كان اتحاد اللاهوت بالناسوت في بطن العذراء هو بداية الكنيسة، ذلك أن الكنيسة هي اجتماع الله مع شعبه، أي مع الإنسانية. ولقد حدث الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في الإنسانية في داخل مريم، هكذا يتحدث القديس كيرلس عامود الدين دون خوف أو تردد لأن هذا كان إعلانًا بالخلاص الآتي الذي سيتم فيه اتحاد اللاهوت بالبشرية كلها[١]. ولقد رأى الآباء في مريم مثالًا لعدة أشياء؛ كانت هي مكان اللقاء بين اللاهوت والناسوت، ولذلك صارت مريم علامة الرجاء على خلاص البشرية وعودتها لله. وقد أفاض الآباء في وصف مريم بأنها سُلَّم يعقوب الذي ربط بين الأرض والسماء .. الخ من تعبيرات معروفة لكل قارئ لكتاب الإبصلمودية السنوية أو الكيهكية. وسوف نثبت **آبائية** هذه التعبيرات وجذورها **الكتابية**.

كانت اليهودية تقاوم الكنيسة، وخيمة الاجتماع والهيكل هما أوجه افتخار الختان على الكنيسة (أبيفانيوس أسقف سلاميس)، ولكن الكنيسة تستطيع أن تقول إن خيمة الاجتماع هي رمزٌ لحدثٍ أعظم، وهو ليس حلول الله "الشكينة"، بل حلول الله واتحاده بالناسوت. ولذلك فسَّر الآباء منذ القديس إيريناوس (حوالي ١٩٠م) خيمة الاجتماع بأنها رمز للعذراء التي حلَّ فيها الله وتجسَّد (سوف ندرس هذا في تذاكية الأحد).

ولما كانت الإفخارستيا هي محور العبادة وقلبها في الكنيسة الجامعة، فقد أدرك الآباء أن جسد المسيح الحقيقي مأخوذٌ من العذراء مثل قسط المن في الخيمة.

---

(١) راجع "تجسد الابن الوحيد" لكيرلس عامود الدين وقد عالج في هذه المقالة الفرق بين المسيح والمؤمنين.

وتطلَّع الآباء إلى حواء الساقطة ورأوا حواء الجديدة التي ولدت الخلاص ولم تأتِ بالمعصية، ومدحوا مريم وعظموها لطاعتها في مقابل عصيان الأولى [عندما تجسد الله أزال اللعنة التي وُضِعت على المرأة، وعندما ولدت امرأة عمانوئيل الذي هو الحياةُ عينها زالت اللعنة تمامًا .. "بالحزن تلدين" (تك ٣: ١٦). وحتى مجيء المسيح حملت النساءُ أولادًا للموت، كانت الحياة بابًا يؤدي إلى الموت، ولكن بميلاد عمانوئيل صار الموتُ بابًا للحياة"[١].

هكذا **صارت مريم حواء الثانية** – أم كل حي (تكوين ٣: ٢٠) لأنها أم مصدر الحياة – أم النور الحقيقي.

(١) القديس كيرلس عامود الدين عظة ٢ على إنجيل لوقا، وتفسير انجيل متى ٢٨: ٩.

الفصل الثاني

العذراء حواء الثانية– ٢[١]

تقول ثيؤطوكية الاثنين:

"حواء التي أغرتها الحية
حُكم عليها من قِبل الرب
أن بالكثرة أُكثِّرُ أحزانك وتنهداتك
تحنن الرب من قِبَل محبته للبشر وسُرَّ مرةً أخرى بعتقها".

وهكذا موضوع سقوط حواء وحكم اللعنة التي عليها، نراه أيضًا في كلمات ثيؤطوكية الخميس:

"البطن المطروحة في الحكم ولدت بنينًا بوجع القلب،
صارت ينبوع عدم الموت
وولدت لنا عمانوئيل بغير زرع بشر
وحلَّ فساد جنسنا".

الموضوع إذن، هو إننا نلنا العتق من لعنة آدم وحواء من الموت والفساد تمامًا. وهكذا طوال أيام السنة تقول الكنيسة:

"كل الأفراح تليق بكِ يا والدة الإله،
لأنه من قِبَلكِ أُرجِعَ آدم إلى الفردوس
ونالت الزينةَ حواءُ عِوض حزنها

(١) مجلة مرقس، العدد ١٦٤ سبتمبر ١٩٧٤، ص ١٥ وما بعدها.

وأخذت الحريةَ دفعةً أخرى من أجلك (بسببك) والخلاص الأبدي
.. ولدتِ أيها العذراء مُعطي الحياة
وخلِّصتِ آدم من الخطية
ومنحتِ حواءَ الفرحَ عوض حزنها" (راجع مديح القيامة ⲧⲉⲛⲛⲁϥ).

هذه العبارات لها جذورها القوية والثابتة في كل كتابات الآباء. فالموضوع جد خطير. لقد طُرحَت الإنسانية في الموت والفساد، وصارت بطن أُم كل حي (تك ٣: ٢٠) مصدرًا للموت. وماذا حدث في التجديد؟ لقد تغيَّر الوضع تمامًا بفضل ميلاد المسيح الابن الكلمة من امرأة. هذا الميلاد لا ينال في عصرنا الحاضر هذا الاهتمام الذي نراه في تسابيح الكنيسة. ولعل أحد أسباب ذلك هو تأثر فكرنا اللاهوتي الأرثوذكسي بالبروتستانتية التي جعلت الصليب مركز وقلب كل شيء، وأهملت التجسد والقيامة، بل نسيت تمامًا الصعود.

أمَّا إذا عُدنا إلى تسابيح الكنيسة، فإننا نرى حواء الثانية محل حواء الأولى، فحسب ثيؤطوكية الأحد نرى حواء الثانية "متسربلةً بمجد اللاهوت داخلًا وخارجًا". هكذا حلَّت العذراء محل حواء وصارت هي أُم كل حي، أو حواء الثانية التي تُولَد منها حياة جديدة غير خاضعة للموت، هي حياة ربنا يسوع المسيح الكلمة الذي يهب هذه الحياة في الإفخارستيا.

ونحن هنا لا نضع هذا الترتيب من عندنا، وإنما يكفي أن نلقي نظرةً على القطعة الرابعة من ثيؤطوكية الأحد:

"أنتِ هي قسط الذهب النقي
المخفى المنُ في وسطه
خبزُ الحياةِ الذي نَزَلَ من السماء وأعطى الحياةَ للعالم
.....

وأنتِ أيضًا يا مريم حملتِ في بطنِكِ المنَ العقلي
الذي أتى من الآب وولدتِه بغير دنسٍ
وأعطانا جسده ودمه الكريمين فحيينا إلى الأبد".

ولعلنا ونحن ندرس هذه النقطة نذكر أن كل القباب التي تغطي المذابح في كل الكنائس القديمة –ولا تزال بعضها قائمًا في كنائس مصر القديمة الأثرية مثل الكنيسة المعلقة والأنبا شنودة وأبو سيفين– تحمل هذه القبة أيقونة البشارة؛ لأنها بشارةٌ بطعام الحياة الخالدة التي لا تموت، أي الإفخارستيا. وهكذا، ما نراه هنا هو كيف ترى الكنيسة الجامعة إيمانها كقطعة واحدة لا يمكن أن تنفصل.

لماذا اختار الآباء لقب حواء، وماذا يعني؟

في نطاق الفهم الشرقي للخلاص وتذوُّق الآباء لاختبار الحياة الجديدة في المسيح رأس الإنسانية وأصل الجنس البشري المولود من الموت للحياة ومن الفساد إلى حرية ومجد الله، رأى الآباء في تعبير القديس بولس عن المسيح "آدم الثاني" إشارةً صريحةً إلى العذراء "حواء الثانية". والعلاقة بين آدم وحواء في سفر التكوين هي علاقة الغواية والسقوط؛ حواء هي التي أغوت آدم أو هي التي سقطت أولًا (تكوين ٣: ١–٦). ولكن طالما أن الله سيَرُد كلَّ شيء وسيُجدِّد ما عتق وشاخ فإن العلاقة بين آدم الجديد وحواء الجديدة ليست مثل العلاقة الأولى. كما دخلت الخطيئة بغواية حواء، دخلت الحياة الجديدة بطاعة حواء الثانية. **والحياة الجديدة هنا هي المسيح وليست مريم**. مريم هي بداية التدبير الجديد. في هذا النطاق وحده **يقارن الآباء بين حواء والعذراء:**

"نحن نعلم أن ابن الله كائنٌ قبل كل المخلوقات جاء من الآب
بإرادته وقوته وصار إنسانًا إذ تجسَّد من العذراء لأن العصيان بدأ

بالحية، ولكن نهاية العصيان مثل بدايته. حواء كانت عذراء غير دنسة لكنها حبلت بكلمة الخداع التي جاءت من الحية، وبذلك جاء إلى العالم المعصية والموت. أما العذراء مريم فقد نالت الإيمان والفرح عندما أخبرها الملاك بالبشارة السارة أن روح الرب سوف يحلُّ عليها وأن قوة العلي سوف تظللها، ولذلك القدوس المولود منها سيُدعى ابن الله. عندئذ أجابت وقالت ليكن لي كقولك. فوُلِد منها ذاك الذي كنّا نتحدث عنه (المسيح) والذي أخبرت به الكتب المقدسة الذي به سحق اللهُ الحيةَ وملائكة الحية والبشر الذين صاروا مثلها. ولكنه (المسيح) يخلِّص من الموت كل الذين يتوبون عن أعمالهم الشريرة ويؤمنون به" (القديس يوستينوس حوالي ١٥٠ م الحوار مع تريفو اليهودي: ١٠٠).

هكذا يؤكد يوستينوس بكل وضوح أن الذي سحق الشيطان وقواته (ملائكته) هو المسيح وليست مريم، وكل الذين في المسيح قد سحقوها بقوة المسيح وحده.

هكذا يؤكد القديس إيرينيوس أن حرية المرأة الأولى مشروطة بميلاد المسيح:

"وحسب هذا التدبير، من أجل خلاص جنس البشر، قالت مريم "ليكن لي كقولك". وبذلك أطاعت. أمَّا حواء فلم تُطِع رغم أنها كانت لا تزال عذراء. وكان آدم زوجًا لحواء رغم كونها عذراء، إلَّا أنه بالمعصية هو أيضًا صار سببًا للموت لنفسه ولحواء ولكل الجنس البشري، ولكن مريم تعيَّن لها زوجٌ حسب اختيار الله وعلمه السابق، ولكنها ظلت عذراء. وعندما التزمت بالطاعة صارت لنفسها ولكل الجنس البشري سببًا للخلاص. وحسب الناموس المرأة المخطوبة لرجل تُدعى زوجةً له رغم أنها تظل عذراء. وهذا بلا شك يشير إلى العلاقة

بين حواء ومريم. والأشياء مرتبطة ببعضها ولا يمكن فصلها ... وحواء لن تحصل على حريتها إلَّا إذا قبلت الأخيرة أن يأتي منها المسيح. وهكذا صار الأول الأخير، والأخير الأول (متى ١٩: ٣٠). وهو ما شرحه النبي بقوله أيضًا "عِوض آبائك يكون بنوك" (مزمور ٤٥: ١٧). وتم هذا عندما وُلِدَ الرب ثم صار البكر من بين الأموات. وأخذ في حضنه الآباء الأولين وولدهم إلى حياة الله نفسه عندما صار بداية الجنس البشري الحي، بينما صار آدم بداية الجنس البشري الميت (١ كو ١٥: ٢٠-٢٢). **هذا جعل لوقا يبدأ سلسلة الأنساب من الرب أولًا حتى آدم، لكي يؤكد أنه وَلَدَ هؤلاء الآباء من جديد، وليس هم الذين ولدوه إلى الحياة حسب الإنجيل.** وكذلك لعنة حواء ومعصيتها، رفعتها مريم بطاعتها؛ لأن حواء العذراء الأولى رُبِطَت بعدم إيمانها، وكذلك مريم العذراء حلَّت رباط حواء بطاعتها" (ضد الهرطقات ٣: ٢٢ و٣٤).

وهكذا يمكننا أن نقارن التسبحة بالقديس إيرينيوس

التسبحة	القديس إيرينيوس
نالت حواء الزينة	لعنة حواء ومعصيتها
وأخذت الحرية.	رفعتها مريم بطاعتها.
	مريم العذراء حلت رباط حواء بطاعتها.

ولكن علينا أن نفهم جيدًا معنى رفع عصيان حواء بطاعة مريم وأن السقوط يقابله النهوض، لكن الذي جاء بالحياة الجديدة هو المسيح. ولذلك عندما يتحدث إيرينيوس عن الطاعة يؤكد أن الطاعة الشاملة الكاملة هي تلك التي أظهرها المسيح:

"جاء الربُّ إلى خاصته ورفع المعصية التي جاءت عن طريق الشجرة

(شجرة المعرفة) بالطاعة التي أظهرها عندما عُلِّق على الشجرة (الصليب)[١] .. الأولى أُغويت بالشر والثانية آمنت بالبشارة المفرحة لكي تلد الله المتجسد وتطيع كلمته. الأولى عصت بعد أن تعدت الوصية أو كلمته، والثانية أطاعت كلمته. هكذا مريم بكلمة الملاك نالت البشارة المفرحة لكي تلد الله المتجسد وتطيع كلمته. الأولى عصت والثانية أطاعت الله. ولذلك تصبح العذراء (مريم) المحامية عن العذراء حواء. وكما رُبِطَ الجنس البشري بالموت عن طريق عذراء، فإنه فُكَّ من (رباط الموت) بعذراء. وهكذا معصية العذراء (حواء) رُفِعَت بطاعة العذراء .. ومكر الحية غُلِب ببساطة الحمامة"(ضد الهرطقات ٥: ١٩).

نحن هنا أمام ذات الموضوع وأحيانًا نجد ذات الألفاظ. يقول القديس يوسيتينوس في حواره مع تريفو اليهودي:

"نحن نعلم أن ابن الله جاء من الآب بإرادته وقوته، وصار إنسانًا وتجسد من العذراء. وكما أن بدء العصيان بالحية كذلك تكون نهاية العصيان مثل بدايته. حواء كانت عذراء غير دنسة، ولكنها حبلت بالكلمة التي جاءت من الحية، وبذلك جاءت المعصية والموت. أمَّا العذراء مريم، فقد كان لها إيمان وفرح، ولذلك عندما أخبرها الملاك بالبشارة (الإنجيل) السارة إن روح الرب سوف يحل عليها، وإن قوة العلي سوف تظللها ... أجابت وقالت ليكن لي كقولك. فوُلِدَ منها ذاك الذي كنا نتحدث عنه (المسيح) ... والذي به سحق الله الحية وملائكته" (الحوار: ١٠٠).

إننا نفهم ما يخص العذراء في المسيح وليس العكس، لأننا بالعذراء مريم

(١) عندما تتحدث الأسفار المقدسة عن الخشبة ١بطرس ٢: ٢٤ فإنها تقصد الشجرة أو الصليب لأن الصليب هو شجرة المعرفة التي تحوَّلت بطاعة الرب إلى شجرة الحياة.

وحدها لا نستطيع أن نفهم أي شيء يخص الخلاص.

هكذا يؤكد **العلامة ترتليان:**

"في الرموز القديمة نجد رمزًا لميلاده، أي آدم الثاني لأن الرب كإنسان، وحسب التدبير وُلِدَ بواسطة عذراء. وفي الرمز (القديم) عندما خُلِق آدم الأول كانت الأرض عذراء. لم يُفلِّحها أحد ولم يضع أحد في ثُلُمها وشقوقها بذارًا، ولذلك قيل إن الله أخذ منها الإنسان الأول وجعله نفسًا حيَّةً. وكما جاء آدم الأول هكذا جاء آدم الثاني، لأن الرسول قال إنه صار روحًا محييًا ووُلِد من الأرض أي أخذ جسدًا من تلك التي لم تتدنس (مريم)، ولكي أؤَكِّد صحة ما أقول وأُدعِّم برهاني أسأل لماذا دعا الرسولُ المسيحَ آدم ما لم يكن قد وُلِدَ من الأرض العذراء كإنسان. والسبب هو أن الله بتدبيرٍ مضادٍ للسقوط دبَّر خلاص صورته ومثاله التي سرقها الشيطان لأن حواء كانت عذراء، لكن كلمة الغواية تسلَّلت إليها فصارت سببًا للموت، ولكن كلمة الله جاء إلى العذراء لكي ما يبني الحياةَ من جديد، وبنفس الجنس الذي تسبب في خرابنا هو نفسه منه جاء الخلاص. حواء آمنت بكلام الحية، مريم آمنت ببشارة غبريال، والخطيئة التي جاءت بسبب تصديق الغواية رفعتها الثانية بإيمانها.." (جسد المسيح: ١٧).

وفي نفس المعنى يؤكد العلامة **أوريجينوس** أن النساء تشرفن بمريم، وأن جنس المرأة الذي صار سببَ الضعف والموت، صار في مريم سبب بركة:

"قبل ولادة أليصابات (ليوحنا) تنبأت أليصابات، وقبل ميلاد مخلصنا تتنبأ العذراء. وكما بدأت الخطية بامرأةٍ ووجدت طريقها للرجل، هكذا الخلاص بدأ بامرأةٍ حتى ما يترك النساء نهائيًا ضعف جنسهن ويتمثلن بتجديد وبحياة النساء القديسات" (العظة السابعة على إنجيل لوقا).

وهكذا يقارن **القديس غريغوريوس العجائبي** بين المرأتين:

"اختارت النعمة العذراء مريم النقية في كل الأجيال لأنها كانت تحفظ نفسها في كل شيء ولم توجد امرأةٌ في كل أجيال النساء مثلها. لم تكن مريم العذراء مثل العذراء الأولى حواء التي رغم أنها كانت مستريحةً في الفردوس، لكن عقلها كان عقيمًا بلا فكر، ولذلك خضعت لغواية وكلام الحيَّة أصل كل الشرور، فتسلط على أفكارها وعندما أغواها نفث سُمَّه الذي يسبب الموت الذي أسر العالم كله وتسبب في مصائب القديسين، ولكن بمريم العذراء القديسة تم إصلاح سقطة الأم الأولى" (العظة الأولى. مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٢٠: ١٢٠).

هنا يرفع **غريغوريوس** صوته بالمديح ويقول:

"– السلام لكِ يا ممتلئةً نعمة.

لا تخجلي لأنك لست سببَ دينونتنا

لأنك أُم ذاك الذي هو ديَّاننا وفادينا بآنٍ واحد.

– السلام لكِ يا أُمًا غير دنسة، يا أُم عريس العالم كله.

– السلام لكِ يا مَن في بطنك دُفِن الموتُ الذي جاءت به أُمنا حواء.

– السلام لكِ يا من أنت على الأرض مكان حلول الله مثل السماء" (العظة الثالثة ٢٠: ١٣٩).

وعندما يتحدث **القديس كيرلس الأورشليمي** إلى الموعوظين ويشرح مجيء المسيح بالجسد، فإنه لا ينسى مريم حواء الثانية. لكنه يضع هذا الهدف في نطاق تدبير الخلاص:

"دعونا نبحث عن سبب مجيء يسوع إلى العالم ولا تلتفتوا إلى البراهين التي سأقدمها وحتى لا تظنوا أنني أُضللكم، لكن ما لم

تسمعوا شهادة الأنبياء عن كل نقطة لا تقبلوا ما أقوله، إلَّا إذا وجدتموه في الأسفار المقدسة عن العذراء وعن المكان والزمان والتدبير. لا تقبلوا شهادة إنسان (يوحنا ٥: ٣٤) .. لم يستطِع الشيطان أن يغوي الرجل لأنه قويٌّ فأغوى الضعيف أي المرأة التي كانت لا تزال عذراء، لأنه بعد الخروج من الفردوس عَرِفَ آدم حواء زوجته (تكوين ٤: ١) ... ولنتعلم سببًا آخر. لقد جاء المسيح لكي يعتمد لكي يقدِّس المعمودية، وجاء لكي يصنع عجائب فمشى على مياه البحر، وقَبلَ تجسُّدِه قيل عنه "البحر رآه فهرب والأردن رجع إلى الخلف" (مزمور ١١٤: ٣)، ولكن عندما أخذ الربُّ جسدًا أصبح البحرُ قادرًا على رؤيته، وأن ينزل في الأردن دون أن يخاف منه الأردن. هذا هو السبب الأول، لكن هناك سببًا آخر؛ بحواء رغم أنها كانت عذراء جاء الموت، وهكذا بالعذراء أو من العذراء ظهرت الحياة. وكما خدعت الحيَّةُ العذراء الأولى، هكذا يجيء جبرائيل بالخبر المفرح للثانية" (دروس للموعوظين ١٢: ٥ و١٥).

ونلاحظ هنا كيف يتحدث كيرلس مباشرة بعد معمودية المسيح عن العذراء مريم، لأن التجسُّد كان من أجل حواء، كما أن معموديته هي من أجل تقديس المعمودية للمؤمنين. ولكنه لا ينسى ليتورجية الكنيسة، ولذلك يعود كيرلس الأورشليمي ويقول:

"وُلدت حواء من جنب آدم دون أن يكون لها أم، وكذلك المسيح وُلِدَ من أمه بدون أب. جنسُ النساء كان مدينًا لجنس الرجال، ولكن مريم دفعت الدين عندما ولدت يسوع المسيح بالروح القدس وبقوة الله". (تعليم الموعوظين ٢: 99).

وهكذا نفهم لماذا نقف عند هذا الموضوع بالذات لكي يصبح أحد موضوعات التسبيح في الكنيسة الجامعة، فالإنسان الذي يصلي إنما يستعد

للاحتفال بأسرار الكنيسة، وهو هنا أمام الشهود الأحياء. وأهم هؤلاء، هو المصلي ذاته الذي يرى طبيعته الميتة وهي تتجدد في المسيح الذي جدَّد كل شيء بتجسده. وكما سنرى عند القديس غريغوريوس النيسي، فإنه لا يمكن فصل تجسُّد الرب عن موته وقيامته، بل أن الكل وحدة واحدة، وفي هذا النطاق وحده يمكننا أن نفهم عبارة **القديس غريغوريوس النيسي**:

> "امرأةٌ تجدُ تبريرًا لامرأةٍ. الأولى بالخشبة (الشجرة) جاءت إلينا بالخطيئة، والثانية بالخشبة (الصليب) التي حملها ثمرةُ بطنها (المسيح) أحضرت إلينا البركة" (تعليم الموعوظين ٣: ٢٧).

ولعل باقي نصوص الآباء لا تحتاج إلى تعليق.

وقفة قصيرة مع شاعر السريان مار إفرام:

كلما دققنا النظر في كتابات مار إفرام كلما استطعنا أن نتعرف على التركيب اللغوي والشعري واللاهوتي الخاص بالصلوات الشرقية عامة، وبالصور الشعرية التي سادت في التسابيح الخاصة بالعذراء. ولكن يجب أن نسجِّل أن الشعر المسيحي هو شعر لاهوتي يعبِّر عن خبرة روحية لا تخضع لمقاييس المنطق والفلسفة أو التحليل العقلي الذي لا يهتم بما يقدمه الإيمان المسيحي من نِعم وهبات إلهية، وهو ما يظهر من هذا النص الجميل للقديس إفرام السرياني الذي نقتطف منه عدة مواضع:

> "يا اخوة يا أبناء حواء، لنستمع لسقوط أُمنا الأولى. السقطة التي أصلحتها مريم. بسقوط حواء انطفأ جمال ومجد الإنسان، ولكنه بمريم عاد من جديد.

***

غباءُ الأُم الأولى هو ينبوع كل شقائنا،
لكن حكمة أختها هو كنز فرحنا.
عاد آدم من جديد عن طريق حواء الجديدة إلى الفردوس.

***

مريم هي باب الحياة لأن العالم وكل الساكنين فيه قد استناروا بها، لأنهم في القديم جلسوا في الظلمة بسبب حواء مصدر كل الشرور.
الإنسانية مثل جسدٍ عَميتَ عينٌ فيه وفقدت البصر، بينما ظلَّت الثانية نقيةً نيّرةً؛ هكذا هناك عينان: العمياء التي في الشّمال حواء، ومريم العين اليمين المملوءة نورًا..

***

لبِسَ البِكرُ سلاحَ المخادِع حتى يقتل بالسلاح الذي قَتَل به ويعيد به الحياة من جديد ..
لذلك، بالشجرة التي بها ذُبِحنا كلنا، بها نفسُها خلُصنا.
بالخمر التي بها سكرنا وفقدنا عقولنا، بها هي نفسُها صرنا بتوليين.
بالضلع الذي أُخذ من آدم، أي حواء استَعبَدَ الشيطانُ قلب الإنسان وأَسَرَه،
لذلك أقام الله الضلع مريم كقوةٍ خفيةٍ لكي ما تقطع الشيطان كما انقطعت يدا داجون بواسطة تابوت العهد.
لأنه في مريم، أي في التابوت كان هناك كتابٌ يصرخ ويبشِّر بمجيء الغالب..

***

غطَّت حواءُ بتوليتها بأوراق الخجل، لكن أُمك غطَّت بتوليتها بالمجد الذي يستر الكل.
أعطت القميص الصغير، أي الجسد لذاك (المسيح) الذي يستر الكل.

مباركةٌ هي لأنكَ أنت الكائنُ في قلبها وعقلها ..
هي مثل قصر الملك لأنكَ سَكَنْتَ فيها يا ابن الملك،
وصارت هي لك مثل قدسِ أقداسٍ يا رئيس الكهنة" (أناشيد مار افرام المجلد الثاني ٣١٨ و٣٢١ و٣٢٦ ثم العظة ٣: ٩ في المجلد الثالث ٤٣٠).

حواء أُم كل حي، والعذراء أُم الحياة نفسها:

من الضروري أن ننتبه إلى حقيقة هامة، وهي أن صلوات الكنيسة الشرقية لم تستوعب كل الموضوعات التي وردت في كتابات الآباء، ولكنها أبرزت أهم الجوانب وتركت الكثير؛ لأن هذا الكثير كان التسليم الشائع والمعروف بين الجماعات المسيحية التي لم تكن تجهل الإيمان. وهكذا كثيرًا ما أخذ الآباء من الليتورجية، أو العكس صاغ الآباء بأنفسهم الكثير من الصلوات والتسابيح. ولعل القطعة المختارة من كتابات القديس أبيفانيوس تشرح هذه الحقيقة وتؤكد أننا أمام تيار عريض لا يمكن حصره في الصلوات والتسابيح فقط.

يقول **القديس أبيفانيوس:**

"حواء رمزٌ للعذراء؛ لأن حواء أخذت –بصورةٍ رمزية– لقب "أُم كل حي". ومع أن حواء نالت لقب "أُم كل حي" إلَّا أنها سمعت بعد ذلك هذه الكلمات: "ترابٌ أنت وإلى التراب تعود"، أي بعد المعصية. وهذا في غاية العجب؛ لأنه حتى بعد سقوطها تأخذ هذا اللقب العظيم. وحسب الظاهر وُلِدَ كل جنس البشر الذي على الأرض من حواء، لكن في الحقيقة من مريم وُلِدَ "الحياة" مخلِّص العالم. وعندما وَلَدَت مريم "الحي" و"المحيي" أصبحت مريم تُدعى "أُم كل حي". وعن هاتين المرأتين قيل: "من أعطى حكمة للنساء أو معرفة

لنسج القماش" (أيوب ٣٨: ٣٦ س). فحواء الأولى بحكمةٍ صنعت ملابس لآدم الذي تسبَّبت في تعريته، ولذلك أُعطى لها حكمة لأن تستر العري المنظور.

أمَّا مريم، فقد أعطاها الله حكمةً، فولدت الحمل. ومِن مجد هذا الحمل تصنع من صوفه -بحكمةٍ وبفضيلةٍ- ثيابَ عدم الفساد. هناك شيءٌ عجيب يحسُن أن نتأمله عن حواء ومريم: صارت حواء سبب موت الإنسانية؛ لأنه بسببها دخل الموت إلى العالم. لكن مريم صارت سبب حياة؛ لأنها ولدت لنا "الحياة".

وهكذا عِوض الموت، صارت الحياة. وبميلادها (الحياة) من مريم خلَّصت الحياةُ الموتَ الذي جاء إلينا عن طريق المرأة، وبذلك تصبح المرأةُ سببَ حياةٍ لنا بعد أن كانت سبب الموت. وكما سقطت حواء في الفردوس -رغم كونها عذراء- في خطية العصيان، هكذا بالعذراء جاءتنا نعمة الطاعة عندما سمعت البشارة المفرحة من السماء بتجسد الكلمة وبالحياة الأبدية. قال الله للحية: "أضع عداوةً بينكِ وبينها وبين نسلكِ ونسلها" ولا يوجد في أي مكان من الأسفار الإلهية إشارةً إلى ذلك النسل الذي غَلَبَ الحيَّةَ سوى يسوع المسيح" (ضد الهرطقات ٧٨: ٨ المجلد ٤٢: ٧٢٨).

وتأكيد الآباء على بتولية حواء هو عنصرٌ هامٌ في التعليم الشرقي النسكي لأنه وإن كانت البتولية لا تكفي للنجاة والخلاص ولا تمنع الإنسان من السقوط، ولكن الإشارة إلى بتولية حواء تأكيدٌ لبتولية حواء الثانية أو بمعنى آخر أن بتولية العذراء هي التي جعلتنا قادرين على رؤية بتولية حواء.

ومع أنه كان يجب أن نضع دراسة موازية عن آدم الثاني ربنا يسوع المسيح تتصدر هذه الدراسات، إلَّا أننا قدَّمنا هذه الدراسة كجزء من موضوع آخر عن

الخلاص[١]، ولذلك نكتفي هنا بالإشارة إلى أن الصورة الكاملة خلف هذه التعبيرات السابقة عند الآباء، لا سيما النص الذي أخذناه من ابيفانيوس هي صورة ميلاد آدم الثاني في رأس الإنسانية الجديدة الذي يلد أبناء الله الذين ينالون الحياة الأبدية ويلبسون ثياب عدم الفساد. وهذا ما يجعل العذراء مريم أُم كل الأحياء بيسوع المسيح ربنا.

آدم الثاني وحواء الثانية:

يقول القديس امبروسيوس:

"من اللائق أن نتذكر كيف سقط آدم الأول وطُرِد من الفردوس إلى الصحراء لكي ما نعرف كيف عاد آدم الثاني من البرية (تجارب المسيح) إلى الفردوس. من تراب الأرض العذراء خُلِق آدم. ومن العذراء وُلِد المسيح. صارت الغباوة بالمرأة والحكمة من العذراء. الموت بالشجرة والحياة بالصليب" (شرح انجيل لوقا ٤: ٧).

وهنا الكل معًا في **أيقونة الخلاص العجيب** يصنعون ذلك المنظر الجميل أصل الإنسانية الأول ومعه عذراؤه وأصل الإنسانية، الثاني ومعه عذراؤه وهذا ما يصوّره امبروسيوس:

"ماذا كسبت أيها الشيطان عندما أخفيت مقاصدك بحديثك الماكر عن الشجرة. ألم تنهزم بالشجرة؟ ألم تهزمك مريم عندما حَمَلَت بالظافر. حقًا لقد افتقد المسيحُ النساءَ جميعًا عندما وُلِد من مريم، وهكذا حررت مريم حواء (رسالة ٤٤).

اسمعوا يا أحبائي سر الناموس. الإنسان الأول من الأرض

---

(١) راجع الواحد والجماعة بين آدم والمسيح – طنطا – ١٩٧٥.

ثم بعد ذلك من السماء. الإنسان الثاني من السماء ثم بعد ذلك من الأرض أي من الله (السماء) ثم من العذراء. الإنسان الأول خُلِق أولًا من تراب الأرض ثم أُعطيَ الروح القدس من السماء[١] (تكوين ٢: ٧).

لكن الإنسان الثاني جاء من الآب من السماء، ثم حلَّ في العذراء. كلاهما من العذراء. الأول من تراب الأرض البكر، والثاني من مريم وكلاهما ليس ثمرة زواج. الأول من الأرض البكر التي لم تتدنس بعد، والثاني من العذراء النقية الأرض التي لم تُزرَع ولم تعرف محراثًا ولا مطرًا.

بالإنسان الأول فُقِدَت الحياة، أما بالثاني فقد أُعيدت .. الإنسان الأول سقط بإغراء عذراء (حواء) والثاني بميلاده من عذراء أقام ما سقط. الأول سقط وبالخطيئة جاءت إلينا عقوبة الموت. الثاني بآلامه وهب لنا الغفران. الأول طُرِدَ من الفردوس بسبب ذنبه، والثاني بمجدٍ عظيم صُلِب لأجل العالم. جاء الشر بامرأةٍ، لكن الصلاح صار من قِبَل امرأةٍ.

بحواء سقطنا. لكن بمريم نهضنا. بحواء هبطنا إلى مرتبة العبيد وبمريم صرنا أحرارًا" (عظة ٤٥ على آدم الأول وآدم الثاني).

"حواء مثل السحابة التي تُمطر على الأرض نعمة المسيح؛ لأن مطر هذه السحابة المقدسة قد أخبر به الآباء أنه خلاص العالم. هذا المطر الذي أطفأ عطش حواء. وهذا العطر الذي طرد نتانة الخطية" (De Imstit Virg XIII:81-84).

وطبعًا إننا نرى هنا تعبيرات التسبحة القبطية عن المطر، وعن السحابة،

---

(١) استقر في التقليد الكنسي من الكنيسة الجامعة وبالذات في الكنيسة الشرقية أن نسمة الحياة التي أعطاها الله لآدم تكوين ٢: ٧ هي عطية الروح القدس وقد فهم الآباء نص سفر التكوين في ضوء ما فعله المسيح بعد قيامته عندما أعطى الروح القدس لباكورة الخليقة الجديدة يوحنا ٢٠: ٢٢.

وعـن العطـر أو البخـور؛ لأن الكلمـة اللاتينيـة لا تختلـف عـن الكلمـة القبطيـة ⲥⲧⲓⲙⲟⲧⲫⲓ وطبعًا صورة المجمرة الذهب حاملة البخور وعطر الحياة أو عنبر الحياة حسب الترجمة القبطية هي الصورة الكامنة خلف هذه الكلمات.

"تأملوا يا أبنائي كيف أن الرب يسوع عندما جاء على الأرض اختار أُمًا له. عندما جاء لكي يعطي الخلاص للعالم، جاء عن طريق العذراء وبميلاده من العذراء مسح خطايا المرأة. يا ليت مجد بتوليتك يا مريم يمسح ذنوبي. ومَن ذا الذي لا يكرمك ويطوِّبك وأنت أم كل العذارى وحصن البتولية". *(Exhortotio Virgin IV:26)*.

"ليس غريبًا أن الرب عندما بدأ فداء العالم، بدأ عمله مع مريم؛ لأنه بواسطة مريم أعدَّ خلاص البشر، وقبلت هي أولًا العربون ثمرة الخلاص". *(In Luc III: 17 - PL 17:1640)*.

"بأي كلام أتحدث عن نعمة البتولية التي استحقت أن يختارها المسيح لكي ما تكون هيكلًا للرب لأننا نقرأ "حل فيه كل ملء اللاهوت"، أي في العذراء وجَدَ المسيح ما كان يريد أن يكون له هو. برجلٍ وامرأةٍ صار الجسد خارج الفردوس، لكن بالعذراء اتحد هذا الجسد بالله". *(Ep. 63:33)*.

"اسمعوا يا أحبائي سر الناموس: الإنسان الأول من الأرض، ثم بعد ذلك من السماء. الإنسان الثاني من السماء، ثم بعد ذلك من الأرض، أي من الله، ثم من العذراء. الإنسان الأول خُلِقَ أولًا من تراب الأرض، ثم أُعطي الروح من السماء، لكن الإنسان الثاني جاء من الآب من السماء، ثم حلَّ في العذراء. كلاهما من العذراء: الأول من تراب الأرض البكر، والثاني من مريم، وكلاهما ليسا ثمرة زواج.

الأول من الأرض البكر التي لم تتدنس بعد، والثاني من العذراء النقية

الأرض التي لم تُزرع ولم تعرف محراثًا ولا مطرًا.[١]
بالإنسان الأول فُقدت الحياة، أمَّا بالثاني فقد أُعيدت. الإنسان الأول فَقَدَ النعمة التي وُهِبَت، أما الثاني فإنه أعاد النعمة مرة أخرى ثانية.
الإنسان الأول سقط بإغراء عذراء (حواء) أسلحته وبها هزمه، وكيف؟ اسمعوا: إن رموز هزيمتنا هي العذراء حواء، والخشبة، والموت. حواء كانت عذراء لأنها لم تكن تعرف آدم يوم أُغويت، والخشبة هي الشجرة .. والموت هو العقوبة التي حُكم بها على آدم. ها أنت ترى كيف أن عذراء .. وخشبة، والموت هي رموز هزيمتنا. الآن ترى كيف صارت هذه الأشياء سبب انتصارنا. مريم بدلًا عن حواء. وبدل شجرة معرفة الخير والشر، شجرة الصليب. وبدل موت آدم. موت الرب". *(Hom In S. Pasch. II 52:767)*.

وهنا يمكننا أن نرى أيضًا أن الخشبة أو الشجرة، وفي اليونانية وغيرها الكلمة واحدة، هي شجرة المعرفة القديمة التي صُلِبَ عليها ربنا لكي يحوّلها إلى شجرة حياة. وهي أيضًا عند مار افرام بالذات والعلامة أوريجينوس من قبله، هي عصا موسى التي فلقت أو شقَّت البحر الأحمر، وبها عَبَر الشعب إلى حياة الحرية. هذه العصا هي الصليب حسب شرح التسابيح الشرقية القديمة.

هذه النصوص تمهد لنا فهم التسابيح الخاصة بالعذراء في الكنيسة القبطية لأن هذه التسابيح تعكس كلمات الآباء.

والنقطة الهامة هي أن الليتورجية القديمة لا تعرف التقسيم العقلي الذي ساد مدارس اللاهوت المعاصرة، وهو فصل التجسد عن الصليب والقيامة، وفصل هذه

(١) راجع النص القبطي "السلام لمريم الملكة الكرمة غير الشائخة التي لم يفلحها فلاح، ووُجِد فيها عنقود الحياة"، وهو لحن قبطي قديم يرجع إلى القرن الخامس.

عن أسرار الكنيسة لا سيما المعمودية والإفخارستيا. ولكن النظرة الشاملة التي نراها في التسبحة والآباء هي التي يجب أن تسود حتى يمكن أن نتذوق حلاوة وعمق أسرار الله.

سيمفونية الخلاص – بقلم أثناسيوس الرسولي:

لماذا نسبّح الرب؟ هل نحن لا نزال نقف على الأرض الملعونة أرض الشقاء والموت، أم أن هذا قد تغيَّر؟ هل نحن لا نزال محاطين بأسوار الفساد، أم أن المسيح قام؟ لنستمع إلى أثناسيوس وهو يشرح نص (لوقا ١٠: ٢٢) والذي عَثَرَ فيه الأريوسيون وسقطوا وتحوَّلت كلمات الخلاص إلى فخٍّ للموت بسبب سوء قلبهم.

> "كلُّ شيءٍ قد دُفع إليَّ من أبي ... (لوقا ١٠: ٢٢)، هذه الكلمات موضع السؤال لا تخص ربوبية الكلمة وسلطانه الإلهي على المخلوقات، ولا إلى التسلط على أعمال الله، بل هي تعلن بشكل جزئي هدف تدبير التجسد .. لأنه عندما خَلَقَ الابنُ كل شيء كان "ولا يزال ربُّ كلِّ الأشياء .. ولكن عندما سقط الإنسان وأخطأ، وبسقطته دبَّت الفوضى في كل شيء: "الموت ملك في آدم إلى موسى (رومية ٥: ١٤) الأرض لُعِنَت والهاوية فتحت فمها، والفردوس أُغلِق والسموات أُهينت، وأخيرًا الإنسان فَسَد وتحول إلى حيوان (مزمور ٦٩: ١٢) وكان الشيطان يفتخر بأنه ساد علينا. عندئذ لم يشأ الله بمحبته للبشر أن الإنسان الذي خُلق على صورته يصير إلى العدم، فقال "مَن أُرسل ومَن يذهب لأجلنا" (أشعياء ٦: ٨)، وبينما صَمَتَ الكلُّ، قال الابن: "ها أنذا أرسلني". عندئذ قال الآب "اذهب". وهكذا دَفَعَ كلَّ شيءٍ إلى يديه، فتجسَّد الكلمة لكي يجدد الكل. وإليه دُفِعَ الإنسان كمَن يدفع المريض إلى طبيب لكي يشفيه من عضة وسُم الحية. دُفع إلى الحياة لكي يقوم الذي

مات، دُفع إلى النور لكي ينير الظلمة، ولأنه هو الكلمة جاء لكي يجدد الطبيعة العاقلة. ومنذ أن دُفعت إليه كل الأشياء، أي منذ أن تجسَّد، صارت كل الأشياء على الفور تحت نظام ونالت الكمال. الأرض نالت البركة عوض اللعنة. الفردوس فُتح أمام اللص، والهاوية ارتعدت، والقبور فُتحت وقام الموتى، وانفتحت أبواب السماوات لكي يدخل منها ذاك الآتي من آدوم (مزمور ٢٤: ٧ – أشعياء ٥٣: ١). *(In III a D Z)*.

وطبعًا، هذا لا يحدث على مستوى الكون كله، وإنما يحدث الآن في الكنيسة الجامعة، وفي الأسرار بشكلٍ خاص. فالماء الذي يجري داخل الأرض التي لُعِنت قد صار ماء الحميم. والحنطة ثمرة الأرض التي لُعنت قد صارت خبز الله الواهب الحياة للعالم. وثمرة شجرة الزيتون صارت دهن المسحة .. هذا كله هو ما يخلق قوة التسبيح، وهو ما يجعل الهوسات الأربعة في التسبحة، المدخل الحقيقي والوحيد لإدراك الخلاص الذي يتحقق الآن في الكنيسة الجامعة. ولو كان المجال يسمح هنا لدرسنا في استطراد كيف يصف الآباء عودة الإنسان إلى الفردوس، أي الكنيسة الجامعة، وكيف تحققت هذه الصورة بتجسد ربنا يسوع المسيح وميلاده من العذراء مريم.

الفصل الثالث

العذراء حواء الثانية– ٣ [١]

إذا كان للتسبيح وظيفةٌ لاهوتية، فإن صياغة التسابيح نفسها هي صياغة لاهوتية دقيقة تعطي للترنيمة أو النشيد قيمة لاهوتية، وتجعل من النشيد أو الترنيمة مرآةً لمراجعة عقائد الإيمان بحيث يمنح التسبيح نفسه منحة الثبات في الإيمان.

بخصوص العذراء، فإن القطع المعروفة باسم "الثيؤطوكيات" الخاصة بكل أيام الأسبوع مقسَّمة إلى "أرباع" شأنها شأن كل تراتيل الكنيسة القبطية. ومن الملاحَظ أن "الربع" الذي يُفتَتح به التسبيح في كل ثيؤطوكية يتكرر مقطعه الأخير دائمًا، أي بعد نهاية كل ربع، وعلى سبيل المثال ثيؤطوكية يوم الاثنين:

"آدم فيما هو حزين سُرَّ الربُّ أن يرده إلى رئاسته".

"أشرق جسديًا من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا".

وعندما ينتهي الخورس البحري من ترتيل الجزء الخاص به، فإن الخورس القبلي يرد: "**أشرق جسديًا من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا**"، وهكذا حتى نهاية الثيؤطوكية على مدار الأسبوع.

وفي الحقيقة، فإن القارئ المتأمِّل يرى أن الجزء الذي يتكرر هو سطرٌ واحد يشرح كل قطعة من قطع الثيؤطوكية. أي أن المرتل يمدح العذراء ويمجدها، ثم يختم بالسبب الذي دعاه لمثل هذا التسبيح، وعندما يكرِّر الخاتمة، فإن الخاتمة المتكررة لم

---

(١) مجلة مرقس العدد ١٦٦ نوفمبر ١٩٧٤ ص ١٤ وما بعدها.

تُوضع اعتباطًا، بل تكون عقيدةً أو خبرًا إنجيليًا له طابع الكرازة وتأكيد الإيمان. وعلى سبيل المثال تقول القطعة الثانية من نفس الثيؤطوكية:

قبلي: "حواء التي أطعتها الحية، وأخذت قضية (الموت) من قبل الرب".

بحري: "بالكثرة أُكثِّر أحزانك وتنهدك.

تحنن الرب بمحبته للبشر وسُرَّ مرةً أخرى أن يعتقها".

قبلي "**أشرق جسديًا من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا**".

وإذا دقَّقنا النظر فإننا نرى أن الربط بين معاني هذه الكلمات هو ما يردِّده الشعب وهو إشراق المسيح[١] كشمسٍ للبر عندما تجسَّد وأضاء على الذين في ظلمة الموت، أي أن التجسُّد هو أساس تسبيح العذراء.

وفي ثيؤطوكية يوم الثلاثاء يردد الشعب خاتمة الربع الأول:

"**لأنه بإرادته ومسرة أبيه والروح القدس أتى وخلَّصنا**".

إذا كان هذا الجزء هو ختام كل ربع في هذه الثيؤطوكية، فإننا يمكن أن نفهم العلاقة بين هذه الكلمات:

قبلي: "السلام للتي أعطت الخلاص آدم وحواء.

السلام للتي أرضعت الذي يعول كل أحد".

بحري: "السلام للقديسة أُم جميع الأحياء.

أنت التي نطلبكِ أن تشفعي فينا".

قبلي: "لأنه بإرادته ومسرة أبيه والروح القدس أتى وخلَّصنا".

فإن كل ما قيل عن آدم وحواء، والعذراء أو حواء الثانية يشرحه هذا المرد[٢]

---

(١) استعمل آباء الإسكندرية هذا التعبير لتأكيد أن المسيح أشرق كشمس للبر عندما تجسد، راجع تفسير نبوة ملاخي للقديس كيرلس عامود الدين ٣: ١٨.

(٢) لعل أقدم إشارة إلى المردات في التسبيح هو ما ذكره القديس اثناسيوس في الدفاع عندما هاجمه الأريوسيون والجنود في العشية وهو في كنيسة القديس البابا ثاؤنا.

الخاص بإرادة الابن ومسرة الآب والروح القدس. وهكذا يمكننا أن نقول إن المرد ليس محاولةً لإشراك الشعب في الترتيل، بل هو تأكيدُ الشعبِ لصحة ما قيل، أو هو شرح الشعب لمعنى الترتيل. ويمكن للقارئ أن يراجع باقي الثيؤطوكيات للتأكد من صحة ما نقول.

العذراء حواء الثانية في التسبحة السنوية:

في مديح نصف الليل حيث تتذكر الكنيسة القيامة وتحتفل بها لا تنسى العذراء وهي تفرح بقيامة المسيح لذلك تقول:

"كل الأفراح لائقة بكِ يا والدة الإله،
لأنكِ من قِبَلكِ رجع آدم إلى الفردوس،
ونالت حواء الزينة عوض حزنها،
وأخذت الحرية دفعةً أخرى من أجلكِ والخلاص الأبدي".

وهنا تشاركنا مريم الفرح لأن "**القيامة هي تاج كل أفراح البشرية**" على حد قول مار إفرام السرياني، ذلك أن القيامة قد أعادت الحياة إلى حواء، ولذلك تفرح حواء الثانية بما نالته حواء الأولى. ولكن العذراء هي أيضًا "**كنز القيامة .. السلام للكنز المختوم الذي امتلأنا بالحياة من قِبَله**"، والكنز المختوم هو "**البتولية**"، وهي كلمة لاهوتية دقيقة نقرأها في كل الكتب الكنسية واللاهوتية الشرقية. ذلك أن البتولية تستند على القيامة، بل هي التربة التي تنمو فيها وحدها هذه البذرة. البتولية هي كنز القيامة وبتولية العذراء هي دليلٌ على نهوض البشرية من فسادها.

"لم تعد الحياة زواج ومسرات، بل فرح بالروح القدس" (القديس جيروم رسالة ٧٠: ٣).

والعذراء بلا شك قد اقتبلت بذار الحياة الجديدة، هي إحدى شهود الخلاص، والشاهد دائمًا يشترك في الحدث في أدنى درجاته بالانفعال والمراقبة، وفي أعلى درجاته بالحوار والشهادة نفسها عندما يمتزج الحدث بحياته.

لقد كان حلول الله المتجسد ليس عبورًا مثل نقطة الماء في قناةٍ من الرصاص، "بل اشتراكٌ في حياة البشرية"، اشتراكٌ له آثاره الخلاصية. وعندما تتحدث التسابيح عن العذراء كأُمٍ وعروس فإن زواجها بالمسيح هو تأكيدٌ على مشاركتها للحياة الجديدة التي في المسيح على النحو الذي تشارك فيه العروس عريسها، وكانت، البتولية هي ثمرة هذا الزواج، "**بتولية العذراء من بتولية المسيح**"[١].

وتمضي كل التسابيح لتؤكد أن الحَبَل بالمسيح هو حقيقة أكيدة تمامًا كما حبلت حواء الأولى بالموت:

> "يا لعمق غنى وحكمة الله لأن البطن الذي طُرح للحكم وولد الأولاد بوجع القلب، صار ينبوعًا لعدم الموت وولد لنا عمانوئيل" (ثيؤطوكية الأحد).

ولعل لُبش نفس اليوم يفسِّر معنى هذا النص:

> "حُكِمَ على حواء أنكِ تلدين بوجع القلب، أمَّا أنتِ فقد سمعتِ افرحي يا ممتلئةً نعمةً".

ذلك أن بشارة الفرح التي سمعتها العذراء جعلت الميلاد بابًا للحياة (راجع نص القديس كيرلس الاسكندري في عدد أغسطس)[٢] وأصبحت المرأةُ شرفًا وكرامة للإنسانية.

---

(١) القديس كيرلس السكندري مقالة ٤: ١١ ضد نسطور.

(٢) "عندما تجسد الله أزال اللعنة التي وُضِعت على المرأة، وعندما ولدت امرأة عمانوئيل الذي هو الحياةُ عينها زالت اللعنة تمامًا .. "بالحزن تلدين" (تك ٣: ١٦). وحتى مجيء المسيح حملت النساءُ أولادًا للموت، كانت الحياة بابًا يؤدي إلى الموت، ولكن بميلاد عمانوئيل صار الموتُ بابًا للحياة" كيرلس عامود الدين عظة ٢ على إنجيل لوقا، وتفسير انجيل متى ٢٨: ٩.

تمتاز الإشارات للعذراء في تسابيح كنيستنا بالبساطة والبُعد عن التَّكلُّف والصياغة اللاهوتية الدقيقة. راجع هذا النص:

"اليمامة النقية التي نادت في أرضنا وأينعت لنا ثمرة الروح.
الروح المعزِّي الذي حلَّ على ابنكِ في مياه الأردن كمثال نوح.
لأن تلك الحمامة هي التي بشَّرتنا بسلام الله الذي صار للبشر.
وأنتِ أيضًا يا رجاءُنا اليمامة العقلية (غير الجسدية) أتيتِ لنا بالرحمة
وحملتِه في بطنكِ" (ذكصولوجية العذراء).

ولعل أهم ما يظهر فيه هو التنقل الدقيق ما بين العذراء والحمامة التي بشَّرت نوح، ثم الحمامة كرمز للروح القدس، ثم ثمرة بطن العذراء الذي أعطانا بتجسُّدِه الروح القدس .. كل هذا يظهر في وحدةٍ واحدة وارتباطٍ شديد مثل بناءٍ واحدٍ متعدد الطبقات، وهذا البناء الواحد هو التجسد، سر الخلاص .. والنص السابق هو مزجٌ بين تفاسير الآباء لسفر نشيد الأناشيد وبالذات ٢: ١١ والرموز الخاصة بالروح القدس وبالمعمودية، وكأننا هنا نقرأ لاهوت الخلاص على هذا النحو:

.. لقد كرزت الحمامة لنوح، ولكنها كانت ترمز لحمامةٍ أخرى هي العذراء التي منها وُلِد المسيح، العذراء هي حمامة السلام للجنس البشري، ولكنها صارت كذلك لأن الحمامة الحقيقية الروح القدس حلَّ عليها ومنها وُلِد المسيح، الذي عندما اعتمد في الأردن حلَّ عليه الروح القدس وكانت حادثة نوح مثالًا لها .. ولعل رمز الحمامة هو من أحسن الرموز المرتبطة بحواء الجديدة التي أعطت لنا الخلاص الأبدي والنجاة من طوفان الغضب.

الفصل الرابع

"السلام لكِ يا مريم"

عبارة "السلام لك" هي عبارة شائعة في العالم القديم. كانت تقال للملوك والقياصرة والعظماء .. ولأن مريم ملكة عظيمة، صارت تلك التحية الملوكية: "السلام لكِ يا مريم" علامة على صحة الإيمان.

وهكذا تصل ثيؤطوكية الأحد إلى قمتها في القطعة التي تُعرف باسم الشيرات، والتي تبدأ بـ "**السلامُ لكِ يا مريم الحمامة الحسنة التي ولدت لنا الله الكلمة**" لكي ترتفع بعد ذلك عائدةً إلى العهد القديم مؤكدةً قوة الخلاص "**وتجسَّد من الروح القدس، ومن مريم العروس الطاهرة. وقَلَبَ حزننا وكل ضيقنا إلى فرح قلب وتهليل كلي. فلنسجد له ونرتل لأمه مريم الحمامة الحسنة**". وبعد ذلك تنساب الشيرات من آدم وحواء وهابيل إلى كل الأسماء اللاحقة في العهد القديم حتى أليشع النبي. فما هو أصل هذا التسبيح اللذيذ المنعش الذي يربط العهدين معًا في نسيجٍ واحد؟

المعنى الدقيق للصيغة:

كان أول من لاحظ أن تحية الملاك للعذراء "**السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً**" هي نصٌّ فريدٌ خاص لا مثيل له في العهدين هو العلامة أوريجينوس:

"لقد حيَّا الملاكُ مريمَ بلغةٍ جديدةٍ لم استطِع أن أجدها في الأسفار

المقدسة، ولذلك يجب أن نقول بعضَ كلماتٍ. وقول الملاك "السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً" هو قولٌ خاصٌ لا أذكر أنه توجد عبارة مماثلة تشبهه في الأسفار، ولا يوجد شخصٌ آخر غير مريم وُجِّهت له هذه الكلمات "السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً". وفي مريم وحدها وُجِدَ خلاص العالم. ولو كانت مريم تعرف أنه يوجد آخر قد وُجِّهت له مثل هذه الكلمات؛ لأنها كانت تعرف وكانت قديسة تعرف نبوات الأنبياء وتتأمل فيها يوميًا، لَمَا كانت قد دُهشت وتعجبت وخافت من هذه التحية. وقد شرح لها الملاك معنى الكلمات عندما أضاف وقال لها "لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله، ها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا ويدعى اسمه يسوع. هذا سيكون عظيمًا وسيُدعى ابن الله العلي". (العلامة أوريجينوس عظة ١٠: ١٧ على إنجيل لوقا).

وهكذا من كلمات العلامة أوريجينوس ندرك أن القديسة مريم ممتلئة نعمة بسبب حلول الله الكلمة في أحشائها. هذا المعنى ثابت ولا يمكن أن تكون عبارة "ممتلئة نعمةً" تنطوي على غير ذلك، ولذلك فإن محاولة إضعاف الترجمة وجعلها "أيتها المنعَم عليها" هو تطرف في مواجهة تطرف آخر، وهو المبالغة في تكريم والدة الإله. وقد لاحظ أيضًا اللاهوتي الانجليزي *Farrar* أن هذه العبارة في إنجيل لوقا لا مثيل لها في الأسفار كلها إلَّا صيغة واحدة وردت في (أف ١: ٦) حيث ترد كلمة χαρτω التي تعني فيض من النعمة يعلن مجد الله ويمدحه[١].

وفي الحقيقة أن الفعل اليوناني χαιρω يعني الفرح والسعادة ومنه جاء الاسم χαρα أي الفرح. وفي العهد القديم الفرح هو دائمًا فرحٌ بعمل الله الذي يخلِّص به (مزمور ٨٣: ٣). فالإنسان يفرح بأعمال الله العظيمة (مزمور ٥: ١١ –

(١) راجع:

The Expositors Greek Testament, vol I, 463.

٩: ٢ – ١٦: ٩ – ٣٢: ١١ – ٣٣: ١ – ٤٠: ١٦ – ٦٣: ١١ – أشـــعياء ٣٥: ١٠ – ٥١: ١١ – ٦٥: ١٨). والفرح في العهد الجديد مرتبط بالبشارة، أي بسماع الخبر المفرح (٢ كور ٧: ٩، ١٦ – فيلبي ٤: ١٠ – ٢ يوحنا ٤ راجع أيضًا ٢ كو ١٣: ٩ – متى ٢: ١٠ – لوقا ٢٣: ٨ يوحنا ٢٠: ٢٠ – أعمال ١١: ٢٣).

ومع أن χαρειν استُخدمت كتحية في العهد الجديد ثلاث مرات فقط "الرسل والشيوخ والأخوة يهدون سلامًا" (أعمال ١٥: ٢٣ وأعمال ٢٣: ٢٦ – يعقوب ١: ١) في إطار حياة الشركة المسيحية. كما استُخدمت كتحية للملك المصلوب من قبيل السخرية (مرقس ١٥: ١٨ – متى ٢٦: ٤٩ – يوحنا ١٩: ٣)، وكانت هذه التحية شائعة في العالم الروماني القديم، وكانت علامة خضوع وقبول للحاكم الروماني بتمني الفرح والسلام له، إلَّا أننا نرى أن استعمال السلام في الحديث مع العذراء يتعدى التحية العادية، فهو يعود بشكل أساسي إلى النبوات الخاصة بمجيء الكلمة المتجسد، وتجسده من العذراء، وأعماله المفرحة والمخلِّصة. يقول النبي زكريا "ابتهجي جدًا يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليكِ. هو عادل ومنصور وديع وراكب على جحش ابن أتان" (زكريا ١٠: ٩). والجزء الأول كما نعرف خاصٌّ بمجيء الرب متجسدًا. أمَّا الجزء الثاني من النبوءة فهو دخوله أورشليم؛ لأن التجسد يسبق الدخول إلى أورشليم. ولكي نتأكد من هذا يقول صفنيا النبي عن مجيء الرب "ترنمي يا ابنة صهيون اهتف يا إسرائيل. افرحي وابتهجي بكل قلبكِ يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب كل صكوك الديون التي عليكِ. أزال عدوكِ. ملك إسرائيل الرب الإله في وسطكِ لا تنظرين بعد شرًا" (صفنيا ٣: ١٤).

"فالرب الإله في وسط أورشليم. ولذلك تبتهج؛ لأنه أتى متجسدًا من والدة الإله وأزال صك الديون، أي حرَّر الطبيعة الإنسانية. وأعطانا التجديد بواسطة اتحاده بجسدنا، فأزال عار الموت وهو أثقل الديون. ورَدَّ نعمة حياة عدم الموت للجسد، وهو أكبر الصكوك. وأقامنا معه وأجلسنا معه في المواضع السماوية وقضى على العدو الشرير إبليس، وهو معنى النبوة أزال عدوك" (تفسير صنفيا ٣: ١ للقديس كيرلس عمود الدين).

وهكذا حتى المفسر المعاصر *Luonnet* يجد أن المعنى العبراني وراء النص اليوناني لإنجيل لوقا ليس مجرد التحية، وإنما السلام وقبول مجيء المسيح.

والسلام بشكلٍ عام هو شركة إيمان وقبول بما يُوهَب من الله. إنه عطية الله، وكل مَن يقول سلامٌ لهذا البيت فإن قَبِلَ البيتُ هذا السلام اشترك الكلُّ فيه، وإن لم يقبله أهل البيت احتفظ به صاحبه وأبقاه لذاته دون أن يفقده (راجع متى ١٠: ١٣ – لوقا ١٠: ٥-٦). ولذلك نحن نعطي السلام لأن أُم الملك حاضرةٌ معنا. ولم يخطئ المترجم القبطي عندما ترجم الكلمة اليونانية القبطية **ϫερε** إلى "السلام"؛ لأن المضمون الروحي في العهد القديم ظاهر بوضوح لا سيما في صفنيا وزكريا.

وعن هذه التحية الفاخرة يقول القديس غريغوريوس العجائبي:

"عندما أرسل الله الملاك بهذه البشارة ظهر للعذراء وقال لها بصوتٍ عالٍ السلام لكِ يا ممتلئة نعمة الرب معكِ، لن يستطيع المعاند (الشيطان) أن يقف ضدكِ، ذلك العدو الذي أصابنا بجُرحٍ، لأن الطبيب الآن يعالجنا بمرهم الخلاص وحيث ظهر الموت، تظهر الحياة الآن. وبامرأةٍ جاء طوفان المرض وبامرأةٍ جاء ينبوع البركة" (العظة الأولى على البشارة).

ويقول القديس امبروسيوس إن والدة الإله تعجَّبت من هذه التحية (لو ١:

٢٩)، ويعلق قائلًا مثل العلامة أوريجينوس بأنها تحية خاصة، فيقول:

"خافت من التحية بسبب الحياء الذي فيها، ولأنها كانت يقظة داخليًّا وتعجَّبت من هذه الكلمات الغير عادية والتي تحمل بركةً خاصةً لأنها كلمات لم تُقَل من قبل، ولمريم وحدها قيلت لأن الخلاص بدأ بها وهي وحدها التي وُصِفَت في الكتاب المقدس "الممتلئة نعمة" لأنها وحدها التي وجدت نعمة دون كل النساء وفيها وحدها حلَّ واهب النعمة وملأها" (شرح إنجيل لوقا ١: ٢٩).

وأجمل ما كتب شعراء الكنيسة هي القصيدة ١٤ لمار إفرام السرياني، ومرد كل مقطع هو:

"مباركٌ هو ميلادكَ يا رب الكل الذي به أنرت كل الخليقة

١- رأى الملاك العذراء الفائقة ودُهِش بما رآه وبمحبةٍ ورِقَّةٍ قال لها

"السلام لكِ يا ممتلئة نعمة"، حتى السموات ليست أعلى منكِ

ترتعد قوات الملائكة أمام ابنكِ

أمَّا أنتِ فأنتِ تحملينه في هدوء

الذي يعطي بنسمة فمه الحياة للملائكة

أنتِ تعطيه اللبن غذاءً لأنه أراد ذلك

يديكِ يا مريم تحمل الجمرة المشتعلة

ولهب هذه الجمرة ساكنٌ لا يحرقكِ

مباركةٌ أنتِ أيها الأُم، مَن مثلكِ ولد مثل هذا!!

٢- يرتفع عقلي فوق حدود الزمان لكي يتأمل ميلادكَ أيها الطفل

وذكائي يتوه وقد غُشيَ عليه من مجدك وبهاء الملائكة

مثل نارٍ سقطت في مياه البحر

رأيتكَ في الآب وتاه فكري لأن النار تحوطكَ من كل جانب

النار والرعود وبهاء مجدكَ يغلب ما لديَّ من شجاعةٍ

وصوتٌ مثل الرعود يقول لي "مَن الذي يقدر أن يفحص ابن الله؟"

.....

٥- المحبة تُلزم عقلي، ولكن تأمُّل السر شاقٌ جدًا
يا ليت الهدوء يجعلني أقبل أن لا أقتحم مكان الأرواح النارية
لأن هذه القوات تحجب الذي لا يُدرَك
تعالوا الآن وعاينوا كيف تحمله مريم
يوسف يضمه إلى حضنه، ذلك الكائن في الآب
والمحتجِب فيه، لكن العذراء تعلنه للمائتين".

وعندما نتذكر مجد ابن الله الكلمة الذي هو النار الإلهية التي لا توجد طبيعة مخلوقة قادرة على أن تحتملها، ونتذكر تواضعه وسكناه في والدة الإله .. ندرك أن عبارة "السلام لكِ يا مريم" هي بمثابة اعتراف بتجسُّد الكلمة كما نرى في كلمات مار إفرام التي تفوق فصاحتها قدرة أي مُترجِم.

ولكن هذه كلمات بسيطة للقديس جيروم حيث يقول لإحدى العذارى ابنة شريفة رومانية تُدعى Laeta:

"تشبَّهي بمريم الذي كان جبرائيل الملاك وحده في قلايتها، ولعل هذا هو السبب الذي دعاها للدهشة والخوف لأنه ظهر في شكل إنسان، وهو أمرٌ لم تكن تتوقعه. يا ليت هذه الابنة تشبه تلك (مريم) التي كُتِبَ عنها أن مجد ابنة الملك في داخلها (مز ٤٥: ١٤). يا ليتكِ أنتِ أيضًا يجرحُ قلبَكِ سهمُ المحبة حتى تقولي لمن يُحبكِ (المسيح) أدخلني الملك إلى حجاله (نشيد ١: ٣)" (رسالة ١٠٧ إلى Laeta).

كانت دوطة خطوبة مريم تلك التحية الملائكية للعذراء الدائمة البتولية مريم لأن الملاك قال لها "السلام لكِ يا ممتلئة نعمة" ... وهي ممتلئة نعمة، أي سكن فيها الذي يعطي المجد للسماء أي رب الأرض أيضًا الذي به جاء إلينا نحن السلام والإيمان لكل الشعوب ونهاية للرذائل وطاعة وحياة للمائتين".

"ممتلئةٌ" لأن النعمة تُعطى جزئيًّا للباقين أمَّا بالنسبة لمريم فقد انسكبت مرةً واحدة النعمة كلها.

وحقًا "ممتلئة" لأن البطاركة القديسين والأنبياء لم يأخذوا هذا الملء، أمَّا بالنسبة لمريم فقد جاء ملء النعمة أي المسيح وسكن فيها بشكلٍ مختلف (عن سكناه في القديسين)، ولذلك يقول لها الملاك "مباركةٌ أنتِ في النساء"، أي مباركةٌ أنتِ أكثر من كل النساء. وعندما انتشر الوباء بحواء وحلَّت اللعنة، جاءت مريم وبالبركة رُفِع كل هذا" (عظة رقم ١٠٣).

"السلام لك يا ممتلئة نعمة" بشرح القديس كيرلس عمود الدين:

هناك قطعة نادرة في كتابات الآباء وضعها الأب يعقوب مين *Migne* ضمن كتابات القديس غريغوريوس العجائبي، ولكن الدراسة المعاصرة أثبتت أنها بقلم القديس كيرلس عمود الدين – حيث يشرح فيها كيرلس "السلامُ لك يا ممتلئةً نعمةً، الربُ معكِ"، فيقول:

"إن المعنى الخفي لهذه الكلمات هو كما يلي: لقد تحرَّكتُ بحنانٍ خاص نحو الجنس البشري، وسوف أنزل إلى الأرض لكي استرد آدم المفقود. لقد أفسدتهُ الخطية رغم أنه خُلق على صورتي. أفسد آدم ما عملته يديَّ، وشوَّه الجمَال الذي خلقته. اذهب أيها الملاك المبشِّر غبريال إلى العذراء مريم. اذهب إلى المدينة الحية التي تكلم عنها النبي وقال "أعمالٌ مجيدةٌ قد قيلت عنك يا مدينة الله" (مزمور ٨٦: ٣). اذهب إلى الفردوس العقلي وإلى الباب الشرقي، إلى مكان استقراري في الأرض. المكان الذي يليق بالكلمة، والذي سوف يصير سماءً على الأرض. اذهب إلى السحابة الخفيفة وبشِّرها بغيوث مطر مجيئي. اذهب إلى الهيكل المعد لي، وإلى رواق التجسد وإلى الخدر النقي

الذي سوف أُولد فيه حسب الجسد. بشِّر وتكلَّم في أُذنيّ التابوت العقلي لكي ترتِّب لي كيف تسمعني. لكن لا تُرعب ولا تخُيف نفس مريم. أظهر لها بشكل قدسي وسلِّم عليها بصوت الفرح.

قُل لمريم هذه التحية: "السلامُ يا ممتلئةً نعمةً"؛ لأنني مزمعٌ أن أُعلن رحمتي على حواء التي فقدت الكثير. وبعد ذلك حَمَل الملاكُ الرسالةَ إلى مريم والبشارة التي كلَّفه بها الله، وظهر للعذراء، وتكلَّم معها بصوت الفرح قائلًا: "السلامُ لك يا ممتلئةً نعمةً، الربُ معكِ".

لن يقدر الشيطان منذ الآن أن يقف ضدكِ، ومع أنه في القديم جرح ذلك العدو الجنس البشري بجرحٍ مميت، إلاَّ أن الطبيب الآن يضع دواء الخلاص. وحيث برز الموت تُعِدُّ الحياةُ الآن دخولها. بواسطة امرأةٍ جاء طوفان المرض علينا، ولكن الآن بواسطة امرأةٍ سوف تنبع البركات.

ها أنتِ سوف تسمعين أيتها النقية خبرًا يوجد مَن هو مستحقٌ أن يسمعه مِن أذان كل الذين نالوا إلهام الروح. أنتِ وحدكِ أيتها العذراء النقية سوف تقبلين الحقيقة التي أُعلنت لأولئك في غموض. من أجل كل ذلك قال الملاك قبل أي شيءٍ آخر للعذراء القديسة مريم: "السلامُ لك يا ممتلئةً نعمةً، الربُ معكِ". وكان يعني بذلك أن كنوز النعم كلها سوف يحلّ فيها. أجيال النساء جميعًا لم يوجد منها عذراء بالروح والجسد سوى مريم، هي وحدها التي سوف تحمل حامل كل الأشياء بكلمة قدرته (عب ١: ٣). وليس جمال جسد هذه القديسة هو وحده الجدير بالإعجاب، وإنما جمال فضائل نفسها .. "السلامُ لك يا ممتلئةً نعمةً"، فالرب ذاته سيكون في داخلك. إنه رب كل التقديس، وأصل كل النقاء، ومصدر عدم الفساد، وواهب الحرية، وحافظ الخلاص، ومانح وموزّع السلام الحقيقي. سبَقَ فصنع من الأرض البِكر الإنسانَ، ومن ضلع آدم

صنع حواء. ولكنه الآن معكِ، وقبل أي شيء آخر هو فيكِ.

لنفحص أيها الأخوة كلمات الملاك لكي نسبّح ونمجّد بكل قوتنا قائلين معه "السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً، الربُ معكِ". وأنتِ أيضًا تفرحين؛ لأنك تعاينين نعمة الرب، الذي اختارك وسكن فيك. ربُّ المجدِ ساكنٌ فيك يا عبدته.

"السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً"، يا ينبوع النور الذي ينير كل مَن يؤمن به (بالمسيح).

"السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً"، يا إشراقة شمس البر، وزهرة الحياة اليانعة غير الذابلة.

"السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً"، يا زهرةً عطرة الرائحة.

"السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً"، الكرمة اليانعة التي لا تذبل، والتي تفرّح نفوس من يكرم ويؤمن بثمرة بطنِكِ.

"السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً"، الأرض البِكر التي لم تفلَّح، وأعطت ثمرًا كثيرًا، لأن الله الكلمة ساكن السموات نزل وحلَّ فيكِ، وكوَّن منك آدم الثاني الذي وُلِدَ من أحشاءك المقدسة.

عظة القديس كيرلس في كنيسة والدة الإله أثناء جلسات مجمع أفسس المسكوني الثالث:

"السلامُ لكَ منا أيها الثالوث القدوس الذي جمعنا هنا في هذه الكنيسة لوالدة الإله مريم.

السلامُ لكِ منّا يا مريم والدة الإله أيها الكنز الملوكي للعالم كله. والسراج غير المنطفئ. وإكليل البتولية. وعمود الأرثوذكسية. والهيكل الذي لا يُنقض. ومكان منير الكل. الأم والعذراء، والذي قال هو في الإنجيل المقدس، إنه سيأتي منها وسيُدعى "مبارك الآتي باسم الرب".

السلامُ لكِ يا مَن احتويت مَن لا يمكن أن يحتوى، وسكن في أحشاءِكِ المقدسة البتولية. أنتِ يا مَن بكِ يتقدس الثالوث القدوس. أنتِ يا مَن بكِ يُكرم الصليب الغالي، ويُحتفَل به في العالم كله.

أنتِ يا مَن بك تفرح السموات، وتُسر الملائكة ورؤساء الملائكة.

أنتِ يا مَن بواسطة ميلادكِ هربت الشياطين، وسقط الشيطان الذي جرَّب الكل من السماء. وبكِ عادت المخلوقات الساقطة إلى السموات.

وأنتِ الذي بكِ عادت كل الخليقة التي رُبِطَت بسلاسل وجنون الوثنية إلى معرفة الحق.

أنتِ الذي بواسطة ميلاد ابنكِ نال المؤمنون المعمودية المقدسة، وزيت البهجة الذي به نالت الشعوب التوبة.

وماذا استطيع أن أضيف إلى هذا؟ أنتِ الذي منكِ أشرق الابن الوحيد والإله للذين كانوا جالسين في الظلمة وظلال الموت، وهو الذي سبق وأخبر الأنبياء عن ميلاده وبشَّر الرسل بخلاصه في العالم وبه قام الموتى، والملوك يحكموا بقوة الثالوث القدوس. (عظة ٤ في مدح العذراء مجلد ٧٧: ٩٩٢).

الفصل الخامس

حواء الثانية والصراع ضد النسطورية

عندما اشتد ساعد النسطورية وقويت شوكتها قبل أن تدان في المجمع المسكوني الثالث ٤٣١م. كان موضوع ميلاد الابن الأزلي بالجسد من الموضوعات الأساسية التي دخلت الصراع وصارت في بؤرته تمامًا. وهكذا عاد شبل الأرثوذكسية كيرلس عمود الدين إلى السؤال الأساسي والهام: ما هو التجسُّد؟ هذا السؤال كان ضروريًا؛ لأنه حجر الزاوية في الصراع العقيدي كله. لقد كان القديس كيرلس يدرك تمام الإدراك أن النسطورية تلعب بالأفكار القديمة التي أشاعتها الغنوسية والمانوية والأريوسية أيضًا. وقد وجَّه هذا الاتهام صراحةً إلى نسطور (المقالة الأولى).

والتجسُّد بكل يقين هو تنازُل الله الكلمة وحلوله حقيقةً في بطن العذراء، واتحاده في بطن العذراء بناسوتٍ مأخوذٍ من العذراء، ثم ميلاده منها ميلادًا حقيقيًّا؛ لأن الناسوت الذي أخذه منها كان ناسوتًا حقيقيًّا. وكل ما هو غير ذلك يعتبر ضد الإيمان المسيحي.

لقد رَفَضَتْ كلٌّ من الغنوسية والمانوية تجسُّد الكلمة، واعتقدتا بظهورٍ إلهيٍ بلا جسد مادي، وإنما هو صورة إنسانية فقط. وكان هذا يعني أن العذراء لم تحبل ولم تلد الله الكلمة، وهذا بدوره لا يؤدي فقط إلى إنكار الثيؤطوكوس *Theotokos* بل هو إنكارٌ صريحٌ للتجسد.

والأريوسية بدورها، عندما أكَّدت أن الابن مخلوق وليس هو الأقنوم الثاني

الأزلي، كانت في الواقع قد أنكرت التجسُّد؛ لأنه بدون الاعتراف الصريح بلاهوت الابن وبناسوته، لا يمكن أن نتكلم عن التجسُّد بالمرة.

إذن يقوم التجسُّد على حقيقتين أساسيتين:

أ– أُلوهية الابن ومساواته للآب.

ب– إنسانيته الكاملة التي أخذها من العذراء.

وهنا علينا أن نرى أن كل كلام حقيقي عن التجسُّد، إنما يعلِن أزلية الابن وإنه من جوهر الآب، وكذلك يؤكد أنه من العذراء أيضًا. ولا نغالي بالمرة إذا قلنا إن الآب والعذراء –كلاهما– الشاهدان الأساسيان على تجسُّد الابن الكلمة. هذا في الواقع ما جعل الصياغة اللاهوتية الدقيقة في ثيؤطوكية يوم الأحد تعبِّر عن الإيمان الأرثوذكسي في قطعة جيدة:

"التابوت المصفَّح: بالذهب من كل ناحية.
المصنوع: من خشب لا يسوِّس"
سبق أن دَلَّنا: على الله الكلمة:
الذي صار إنسانًا: بغير افتراق".
واحدٌ من اثنين: لاهوتٌ قدوس:
بغير فسادٍ: مساوي للآب:
وناسوتٌ طاهرٌ: بغير زواجٍ:
مساوٍ لنا: كالتدبير:
هذا الذي أخذه منكِ:
أيتها الغير الدنسة: واتحد به كأقنوم".

وهنا يصل التعبير والتسبيح إلى قوته مع الإيقاع الموسيقي في اللغة القبطية، وهو الإيقاع الذي لا يظهر في الترجمة العربية بالمرة.

أمَّا ما هو جديرٌ بالذِّكر، فهو تفسير المرتلين وشعراء الأقباط الذين وضعوا تفسيرًا على كل قطعة من قطع الثيؤطوكيات السبع، وكأن النصوص نفسها صارت تحتاج إلى إيضاح. مفسرٌ رأى أن الخشب الذي لا يسوس هي فضائل العذراء، التي لم يختلط سوس الرذائل بفضائلها (التسبحة الكيهكية ص ٨٠٣). ولكن مفسرًا آخر أدرك قوة التعبير عن التجسُّد فقال:

"أنت هي التابوت الذي للعهد يا مريم العذراء الكاملة".

"التي عملوها من خشبٍ لا يسوس وطلوها بالذهب من داخل ومن خارج".

"الله مخلصنا الذي تجسَّد منك بوحدانية لا ينطق بها".

"حلَّ فينا حسب التدبير وتساوى معنا في البشرية".

وهذا الشرح يعلن الإيمان ويؤكده، ويعلن بكل وضوح أن الابن الكلمة تجسَّد فعلًا عندما وُلِد من العذراء. وبدون الميلاد من العذراء لا يمكن أن نتكلم عن التجسُّد.

شرح القديس كيرلس:

سوف نكتفي هنا بما جاء في الكتاب الأول ضد نسطور. ومع أن هذا عملٌ غير كامل إلاَّ أننا سوف نقدم دراسة كاملة عن تجسُّد ربنا يسوع المسيح وشرح الآباء للتجسد أن شاء الرب. وسوف نتبع التسلسل الفكري في رد القديس كيرلس على نسطور، والذي يبدأ أولًا بتأكيد أن التجسد لم يكن تغيُّرًا في لاهوت الابن، فيقول:

"والتغيُّر مستحيل تمامًا، لأن طبيعة الله ثابتة ولا تتزعزع صفاتها بالمرة، وقد شهد (الإنجيلي) قائلًا "الكلمة سكن فينا"، أي عندما تجسد،

فشرح بكل دقة حكمة التدبير وحرس بكل أمانة وحق طبيعة الكلمة من أن تُتهم من قِبَل أي إنسان بأنها صارت جسدًا، أي تحوَّلت وتغيَّرت إلى ما ليس من طبيعتها".

وبعد ذلك يشرح التجسُّد ويقول:

"ونحن أنفسنا نقول إن تتبعنا هدف الأسفار الإلهية بدون أن نفقد التحديد الصحيح للإيمان، نجد أن الذي وُلِدَ من الله الآب هو بالطبيعة إله، وهو الابن الوحيد الذي في حضن الآب (يوحنا ١: ١٨)، وهو الذي به خُلقت كل الكائنات، وفيه تستمر في البقاء، ولكنه قبل كل الدهور وقبل الأزمنة له أقنومه الخاص به وكائنٌ دائمًا مع الذي ولده. هو تنازل طوعيًّا إلى فراغ الإنسان في آخر الدهور، وأخذ صورة العبد، أي صار في ذات الأوضاع الخاصة بالإنسان تدبيريًّا، وصار مثل إخوته في كل شيء (عب ٢: ١٧) واشترك في اللحم والدم (عب ٢: ١٤). وهكذا هو بذاته وُلِد مثلنا، ونما جسده الذي تكوَّن جنينًا، ولكن لم يكن هذا بدايةً ثانيةً له احتاجها؛ لأنه "وكان الكلمة في البدء عند الله"، ولكن لكي يجمع الجنس البشري كله (أف ١: ١٠) ويصبح الرأس الثاني، وباكورة ثمار الجنس البشري الأول الذي من آدم. ولذلك وُلِدَ بالجسد من امرأة حسب الأسفار. وهو الغني بهذا القدر، افتقر لكي يعيدنا إلى غناه من جديد، فتجسد لكي يجمع الكل في ذاته وبواسطة الجسد الذي اتحد به أقنومه. وهكذا دُفنَّا مع المسيح بواسطة المعمودية المقدسة، وقمنا معه وجلسنا معه في المواضع السماوية (كولوسي ٢: ١٢ مع أفسس ٢: ٦).

ويمضي القديس كيرلس بعد ذلك مؤكدًا أُلوهية الابن ومساواته للآب في الجوهر، وبعد ذلك يدافع عن لقب والدة الإله قائلًا:

"ولكن البعض من الذين يقاومون جمال وقداسة عقائد الكنيسة محاولين إضافة غَضَنٍ (أف ٥: ٢٧) إلى العذراء النقية القديسة،

محاولين تصويرها حسب فسادهم".

وبعد أن يقتبس نصًّا طويلًا من إحدى عظات نسطور، يرد عليه قائلًا:

"إن الأسفار الإلهية الموحى بها من الله تقول إن الكلمة المولود من الله الآب تجسَّد، وإنه بدون اختلاط اتحد أقنوميًّا بالجسد، ولم يكن الجسد الذي اتحد به، والذي به وُلِدَ من امرأةٍ غريبًا عنه، وإنما الجسدُ بالنسبة للابن الوحيد هو جسده الخاص به، كما أن الجسد خاصٌّ بكل واحد من البشر. وكيف يمكن أن يتجسد الكلمة إلَّا إذا وُلِدَ من امرأةٍ وخضع لنواميس الطبيعة".

ويناقش القديس كيرلس بعد ذلك الخرافات الشائعة في الأوساط اليونانية التي تقول "إن أجساد البشر تولد من شجرة بلوط أو صخرة"، وإنما الأجساد البشرية تولد حسب إرادة الخالق. ويؤكد كيرلس إن الكلمة كان قادرًا على أن يخلق لنفسه جسدًا بدون مريم، والله كان يستطيع أن يخلق هذا الجسد كما حدث بالنسبة لآدم، ولكنه يؤكد أن هذا هو كفر المانيين "الذين يبحثون عما يعيبون به سر التجسد، وأنا أعني بالدرجة الأولى المانيين الذين يثبون علينا، والذين تخاف أنت منهم يا نسطور كمقاومين للقب والدة الإله مع أن هذا اللقب يؤكد تجسُّد الكلمة، أمَّا المانيون فيعتبرون إن التجسُّد هو خيالٌ".

وهكذا بعد أن يؤكد أن إنكار التجسد هو مانوية صريحة، وإن أي كلام عن عمانوئيل الله معنا لا يمكن أن يتم إلَّا إذا وُلِدَ الابن من العذراء، يصل إلى النقطة التي نحن بصددها والتي تشغل اهتمام الآباء الذين سبقوه:

"وكان التجسُّد ضروريًا بسببٍ آخر، ومن أجل الذين على الأرض تمَّ تجسُّد وتأنُّس الكلمة αρκωσις ηγυν ενανερω πησις لأنه إذا لم يكن قد وُلِدَ وصار مثلنا نحن حسب الجسد، وإذا لم يكن قد اشترك في اللحم والدم لما كان قد حرَّر طبيعة الإنسان من اللعنة التي

التصقت بها في آدم، ولا كان قد حرَّر أجسادنا من الفساد، ولا كان قد أوقف قوة اللعنة التي تقول إن المرأة الأولى نالتها والتي قيل لها "بالأحزان تلدين الأولاد" (تكوين ٣: ١٦).

وهكذا نرى تتابع الفكر من تحديدٍ للتجسُّد، إلى تأكيدٍ على الاتحاد، إلى إبراز كفر المانوية وضرورة الإيمان بأن العذراء والدة الإله، ثم النقطة الحاسمة وهي ضرورة ميلاد الابن الكلمة من امرأة لكي يحرِّر الطبيعة الإنسانية ويجدِّدُها ويجعلها حرةً من الفساد. هذه الحرية ليست قاصرة على جنس الرجال؛ لأن رفع اللعنة والفساد والموت هو رفعُ اللعنة التي قيلت للمرأة في سفر التكوين. ومَن يتابع هذا التسلسل لابد وأن يشعر بأنه يقرأ ثيؤطوكية قبطية مثل ثيؤطوكية الأحد، أو السبت، أو الخميس. ويكاد يشعر بأن الشاعر القبطي ربما كان هو القديس كيرلس نفسه.

ولكي نختم هذا المقطع الطويل نكتفي بالفقرة التالية، فهي تؤكد ما سبق وقلناه. يقول القديس كيرلس:

"ولكن طبيعة الإنسان سقطت في مرض العصيان في آدم، ولكنها صارت الآن متوَّجةً في المسيح بالطاعة المطلقة كما هو مكتوب "كما بعصيان الواحد جعل الكثيرين خطاة، هكذا بطاعة الواحد سيُجعَل الكثيرين أبرارًا (رومية ٥: ١٩). وفي آدم عانت الإنسانية "ترابٌ أنت وإلى التراب تعود" (تكوين ٣: ١٩). أمَّا في المسيح، فقد نالت غنى القدرة على أن تعلو على آلام الموت، وأن تتفوق على الفساد، قائلةً كلمات النبي "يا موت أين شوكتك" (هوشع ١٣: ١٤ – ١ كو ١٥: ٥٥).

تمامًا وحقًا تمَّ ذلك بما قيل للعذراء القديسة. لقد لُعِنت الطبيعة الإنسانية في آدم. أمَّا في المسيح، فقد أُبيدت اللعنة بواسطة أليصابات التي تنبأت بالروح القدس "مباركةٌ أنتِ في النساء ومباركةٌ

هي ثمرة بطنكِ" (لوقا ١: ٤٢). مَلَكَ الموتُ علينا، ومخترع وأب الخطية الشيطان صار يفتخر بما حلَّ بنا نحن جميعًا القاطنين تحت السموات محتجًّا على تعدينا الناموس الإلهي. أمَّا في المسيح، فإننا نرى الطبيعة الإنسانية قد صار لها رأسٌ جديدٌ، وثمارٌ جديدةٌ، ولها ثقةٌ بالله؛ لأنه قال بكل صراحة "رئيس هذا العالم آتٍ وليس له فيَّ شيءٌ (يوحنا ١٤: ٣٠)" (ضد تجاديف نسطور – المقالة الأولى: ١).

وهكذا نستطيع أن نرى أن عبارة أليصابات تجد مكانها الحقيقي في إطار فهم الخلاص بشكل صحيح، فهي عبارة نبوية عن الجنس البشري الجديد والخلاص الآتي بربنا يسوع المسيح، وهي التي تجعلنا نقول مع أليصابات: "السلام لكِ يا ممتلئة نعمة ..".

وحتى لا يظن أحدٌ أننا أخذنا عبارات شاردة من عند القديس كيرلس عمود الدين، فإننا سوف نقتبس نصًا طويلًا من تفسيره لإنجيل يوحنا. وأمَّا رفعُ اللعنةَ عن المرأة بواسطة ميلاد الابن الكلمة من العذراء عند القديس كيرلس السكندري، فيمكن أن يراجع من دراسةٍ أخرى[١].

يقول القديس كيرلس معلِّقًا على لقاء الرب يسوع المسيح بمريم المجدلية بعد قيامته من الأموات:

"إن مريم المجدلية أكملت خلاص المرأة في الضعف الذي أحاط بها منذ السقوط؛ لأن فيها –أي في مريم المجدلية– كُللت النساء بمجدٍ

(١) راجع: كيف يفهم كيرلس الزواج، وكيف يراه في إطار معجزة قانا الجليل؟ في "تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية في الطقوس والقوانين الكنسية" ص ١٥٤ وما بعدها – المرأة في اللاهوت الكنسي – مجلس كنائس الشرق الأوسط – الطبعة الأولى ١٩٨٠. ويمكن أيضًا مراجعة كتابنا: تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية، جذور للنشر، القاهرة ٢٠١٣، ص ٧٩ وما بعدها.

متضاعف. ورغم أن مريم كانت تبكي، وجعلت من موت المسيح فرصةً للبكاء والنواح إلَّا أنها عادت إلى الفرح عندما منعها الرب من البكاء. وهو الذي في القديم وبالحكم جعل النساء يُغلَبن من الأحزان؛ لأن الله قال للمرأة "بالحزن تلدين الأولاد" (تكوين ٣: ١٦). ولكنه كما جعلها خاضعةً للحزن في الفردوس عندما سمعت صوت الحية وخدمت حيل الشيطان، إلَّا أنه الآن في البستان يطلب منها أن تكف عن البكاء. وعتقها من اللعنة التي ربطتها بالأحزان. وهو الآن يطلب منها أن تكون أول مَن يبشِّر بالخبر المفرح العظيم، أي الإنجيل، بل أن تبشِّر الرسل بصعوده إلى السماء. وكما أن المرأة الأولى أُم الجنس البشري قد دينت لأنها سمعت لصوت الشيطان، ومن خلالها كل النساء. هكذا هذه المرأة –مريم المجدلية– ومن خلالها كل النساء سمعت كلمات مخلصنا وبشَّرت بالأخبار السارة المحمَّلة بالحياة الأبدية. وهكذا يخلُص كل جنس النساء من اللوم القديم. وهنا منح الرب لمريم الخلاص من دموع الحزن وحررها من الميل للحزن. وأعطاها القدمين الجميلتين اللتين قال عنهما النبي "ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام. المبشرين بالخيرات" (أشعياء ٦٣: ٦). ولم تكن قدما تلك المرأة –في القديم– أي حواء جميلتين؛ لأنهما لم تبشرا بالسلام أو الخيرات عندما أغوت أبانا الأول، آدم، لكي يعصى الوصية المقدسة. ولكن النبي قال عنها وعن النساء اللائي بشرن الرسل القديسين بقيامة المخلص "أيتها النساء اللائي شاهدن تعالوا وبشروا الشعب الذي لا يفهم" (أشعياء ٢٧: ١١)[١].

(١) د. جورج حبيب بباوي – آلام المسيح وقيامته في إنجيل يوحنا للقديس كيرلس السكندري – تفسير الإصحاحات ١٨ – ٢٠، مجموعة الآباء: ٤. ص ١٠٢– ابريل ١٩٧٢م.

الفصل السادس

صلوات وألحان قديمة عن العذراء مريم[١]

تُعد دراسة النصوص المسيحية القديمة من أهم الدراسات في مجالات العقيدة والكتاب المقدس والليتورجيا. ذلك أنها تشكل عودةً إلى الينابيع التي استقت منها الكنيسةُ في تاريخها الطويل.

العلاقة بين التفاسير والصلوات والألحان:

كلُّ لحنٍ هو صلاةٌ، ويمكن أن تكون كلُّ صلاةٍ لحنًا. وفي التقليد الأرثوذكسي تدخل تفاسير الكتاب المقدس لآباء الكنيسة كمادة أساسية في الصلوات والألحان. بل تشكِّل المفردات والكلمات الغنية اللاهوتية أهم فقرات الصلاة أو اللحن ويندر أن نعثر عن لحنٍ أو صلاةٍ أهمل المصطلحات اللاهوتية الكنسية.

هذه الظاهرة هامة وأساسية لأنها تعبر عن وحدة الحياة المسيحية، فما يغترفه المسيحي من معاني الكتاب المقدس يدخل في صلاته وألحانه ولا يظل محبوسًا في الكتب. أي أن الكتاب المقدس لا يبقى مصدرًا قائمًا بذاته للتعليم منفصلًا عن الحياة الكنسية، بل مادةُ بناء الحياة المسيحية. وبالذات في العقيدة والليتورجيا. ولذلك، كلُّ تفسيرٍ هو تمهيدٌ لصلاة، وكلُّ صلاةٍ هي بدايةُ لحنٍ، ولكن في نفس

(١) مجلة مرقس، العدد ١٧٣ أغسطس ١٩٧٥ ص ١٨ وما بعدها.

الوقت علينا أن نرى بوضوح أن تفاسير الآباء بالذات تأثَّرت بالحياة الكنسية، فجاءت هذه التفاسير غنيةٌ بالإشارات إلى الطقس وإلى صلوات الكنيسة، وكأننا نستطيع أن نتصوَّر أيًّا من الآباء يفسر الكتاب المقدس مستعينًا بالتيار الروحي النسكي اللاهوتي والليتورجيا، فتدخل كل هذه العناصر في التفاسير، ثم يأتي التفسير ويدخل في كل هذه العناصر فتنشأ الوحدة التي لا تصدُّعَ فيها.

أصالة الألحان عن العذراء في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية:

من المؤسف أننا لم نكتشف تراثنا بعد ولا زلنا أشبه بمن فَقَدَ ذاكرته جزئيًا. ففي مجال الطقوس والصلوات الطقسية (الليتورجيا) لا زلنا نحتاج إلى طبعات محققة لهذه الكتب تأخذ بعين الاعتبار كل ما هو موجود من مخطوطات. ولا زلنا نحتاج إلى مراجعة هذه الكتب على التقليد، لا لمجرد التأكد من سلامتها بل لاكتشاف معانيها. وبدون العودة إلى الآباء بكل ما يحملونه إلينا من كتاب مقدس ولاهوت وليتورجيا سيظل الطقس مبهمًا غريبًا لا طعمَ له إلَّا في مجال الاجتهاد الشخصي والتأويل الرمزي الذي يخضع للخيال البشري المتسع غير المنضبط بقواعد الدراسة والتاريخ.

وكمثالٍ لما نقول؛ اللحن المشهور: "العليقة التي رآها موسى النبي في البرية". فحتى هذه اللحظة لم نعثر على النص القبطي لهذا اللحن. وليس كلُّ ما هو مكتوب أو مدوَّن بالعربية زائفًا أو دخيلًا. ذلك أن الألحان العربية التي ليس لها أصل قبطي من المؤكد أنها ترجمة عن القبطية، وقد سألت نفسي: لماذا تضع الكنيسة لحنًا عربيًا بمرد قبطي؟ أليس المرد القبطي هو أصلًا بقايا اللحن القبطي؟ ولحن العليقة مبني على تفسير مار إفرام السرياني للحادثة المشهورة في سفر الخروج (٣: ٢). وهذا

يؤَكِّد لنا ما ذكرناه سابقًا. ومار إفرام هنا لا يعبِّر عن رأيه الشخصي، بل يعبِّر عن تقليدٍ عام شاع في القرن الرابع ولم يُكتَب بمثل هذا التفصيل إلَّا عند مار إفرام.

يقول مار إفرام:

"في النار رأى موسى جمالَكِ يا ابنة داود لأن في أحشائكِ حلَّ اللهبُ دون أن تحترقي يا والدة الإله المملوءة من النعمة.
أيتها العليقة غير المحترقة الدائمة الخضرة (أمثال ٢٧: ٢٥)، وعصا هارون التي أزهرت (عدد ١٨: ٧-١٠ ثم عبرانيين ٩: ٤).
لأنكِ أنتِ بالحقيقةِ العصا وابنُكِ هو الزهرة، لأن المسيحَ أزهر من أصل داود وسليمان وهو خالقنا، الضابط الكل، الله والرب العالي وحده. هو وحده الله والإنسان وأنتِ أُمه العذراء قَبلَ الحَبَلِ والعذراء في الحَبَلِ وفي الولادة وبعد الولادة" (تفسير سفر الخروج لمار إفرام — أعمال مار إفرام المجلد الثالث: ٦٠٥).

ويقول أحد معاصري مار إفرام؛ القديس ثيئودوتوس أسقف أنقرة:

"ألا ترى في العليقة المشتعلة مريم العذراء" (عظة على عيد البشارة نشرها الأب ليفيوس في مجلة الدراسات الشرقية المسيحية، باريس، المجلد الثالث: ٢٢٩).

وسوف نرى كم تعكس هذه النصوص التي تُتَرجَم للعربية لأول مرة أصالة وقِدم الألحان التي نسبّح بها الله على تجسُّدِه من العذراء.

واللغة القوية التي نقرأها عند القديس كيرلس السكندري يجب أن تظل دائمًا مرتبطةً بأمجاد التجسُّد وآثاره على العلاقة بين الله والإنسان. لأن كل ما يُقال من مديحٍ للعذراء هو بالضرورة مديحٌ لله على تجسُّدِه، فهي الشاهد الحقيقي على تجسُّد ابن الله لأنها حَبَلَت به وولدته وأرضعته. وقد استعنا في جميع هذه النصوص بكتاب الأب *A. Hamman* الذي صدر بالفرنسية ثم بالإنجليزية سنة ١٩٦٢

بعنوان "**صلوات المسيحيين الأوائل**" وتُرجِمت النصوص من القبطية واليونانية.

(١)

+ صلاة[١]:

"السلامُ لكِ يا ممتلئةً نعمةً الربُّ معكِ، لقد وقع عليكِ الاختيار لأنكِ نقيةٌ بلا دنس، لأنكِ تستجيبين لله، كما كنتِ دائمًا، صاحبةُ الفضائل، وجدتِ نعمةً في عيني الله، وها أنتِ تلدين ابنًا، وتسمينه يسوع، وسوف يخلِّص الشعوب وسيُدعى، ابن الله، وسوف يعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، وسيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ومملكته لن تنتهي.

كيف يكون هذا وأنا عذراء؟ الروح القدس يحلُّ عليكِ، وقوة الله سوف تظللكِ. لذلك المولود منكِ، يدعى ابن الله.

أنا في خدمة الرب، ليكن لي كقولِكَ.

مباركةٌ أنتِ في النساء لأن الربَّ هو الذي تحدث معكِ، وهو الذي أَمَرَ أن تُعطى لكِ البشارة؛ في ابنكِ كلُّ قبائل اليهود، وكلُّ أجناس الأُمم، سوف تخلص.

مع رئيس الملائكة والملائكة، لنقدم نحن أيضًا التكريم؛

السلامُ يا محبوبةً من الرب، الجالسةُ في الأعالي،

السلامُ يا مَن قبلتِ الله، السلامُ يا طريقنا إلى المخلص.

أنت الحمامة التي قادت البشر بعيدًا عن الطوفان، افرحي يا فراخ

---

(١) النص قبطي صعيدي على شقفة تحمل رقم ٦٦٩ في مكتبة سترازبورج اشتراه شخصٌ مجهول في الأقصر سنة ١٨٩٦. يعتقد العالم الألماني Crum أنه كُتِب في القرن السابع. ويشك البعض في أنه نسطوري لغياب لقب والدة الإله ولأن لقب Theodokos أي التي قبلت الله يظهر فيه، ولكن هذا سوء فهم لحقيقة الهرطقة النسطورية، وكما تتحدث النصوص الليتورجية عن العذراء على أنها Theotokos فإنها تتحدث عنها أيضًا على أنها Theodokos راجع على سبيل المثال الإبصلمودية الكيهكية الإبصالية الواطس الثانية ص ٢٢ طبعة سنة ١٩١١.

العذراء.
السلامُ لمن سكن فيها الله، السلامُ لمن قَبِلت الله من السماء.
السلامُ يا عذراء، السلامُ يا مريم،
السلامُ يا كتابًا يقرأه العذارى، الكتابُ الذي يخبر بالنور الأبدي.
السلامُ، كلُّ السلام".

(٢)

+ لحن[١]:

"السلامُ يا مريم، الممتلئة نعمة، الربُّ معكِ، وكذلك الروح القدس،
كهنتُكَ (يا ربُّ) يلبسون البر، الذين يمجدونكَ يفرحون ويرتفعون،
يا رب من أجل داود عبدك، يا رب خلِّص شعبك وبارك ميراثك
الذي اخترته.
السلامُ للعذراء المجيدة، مريم المملوءة نعمةً، الربُّ معكِ،
مباركةٌ أنتِ أكثر من كلِّ النساء، ومباركةٌ هي ثمرة بطنِكِ،
لأن الذي حَبَلتِ به هو المسيح، ابن الله، وهو فدى نفوسنا".

(٣)

+ لحن[٢]: لوالدة الإله للقديس كيرلس السكندري:

السلامُ لكَ أيها الثالوث القدوس والسِّري،
استجابةً لطلب الذين يدعون، اجتمعنا في هذه الكنيسة التي للعذراء

---

(١) شقفةٌ قدمها الدكتور Naville إلى المتحف البريطاني، يُعتَقد أنها من دير أبيفانيوس في صعيد مصر. يعتقد Crum أنها من القرن السادس ويعتقد عالم الليتورجيات Brightman أنها أقدم نص في الليتورجية للحن "السلام لك يا مريم"، وأنه ربما كان يُقال في أعياد العذراء في القرن الخامس.
(٢) وهو خاتمة العظة الرابعة التي ألقيت في كنيسة العذراء بأفسس سنة ٤٣١ وهي أشهر قطعة في مدح العذراء في كل كتابات الآباء – المجلد ٧٧: ٩٩٢.

مريم والدة الإله.

السلامُ لكِ يا والدة الإله ..

يا كنزَ العالم كله، الذي حضوره بيننا يُوجِب الاحترام.

المصباحُ الذي لن يكفَّ عن الاشتعال.

يا تتويجَ مجد البتولية.

يا ركنَ الإيمان الأرثوذكسي.

يا هيكلًا لا يستطيع أحدٌ إزالته.

المكانُ الذي حلَّ فيه مَن لا يمكن لأيّ مكانٍ أن يحتويه.

أنتِ أُمٌّ وعذراءٌ معًا.

الشكرُ لكَ، لأن الذي يأتي باسم الرب يكون مباركًا في الأناجيل المقدسة.

السلامُ لكَ (المسيح) يا مَن لا يُحَدَّكَ مكانٌ، وأنتِ أعطيته مكانًا في أحشائكِ المقدسة البتولية.

الشكرُ لكِ[١]، لأن الثالوث يتمجَّد، والصليبُ يُدعى كريمًا ويكرَّم في كل العالم.

الشكرُ لكِ، لأن السموات تفرح، ورؤساء الملائكة والملائكة يحتفلون بعيدٍ دائمٍ. أمَّا الأرواح النجسة فقد طُرِدَت.

الشكرُ لكِ، لأن الشيطان الذي جَرَّبَ الإنسانَ قد سقط من السماء، والإنسانُ الساقطُ قد عاد إلى مكانه[٢] مرةً ثانيةً.

---

(١) الشكر هنا موجَّهٌ للعذراء لأنها أداة التجسد.

(٢) لا يعرف التقليد الشرقي الفكرة التي ذاعت في التقليد اللاتيني القائلة بأن الله خلق الإنسان ليأخذ مكان الشيطان الساقط. وقد شاعت هذه الفكرة في الأوساط التي تأثرت ببدعة ماني، وهي إحدى آثار المانوية في كتابات اوغسطينوس لأن الإنسان خُلِقَ ليحيا في الفردوس وينتقل إلى الملكوت الأبدي بدون الموت، لا ليأخذ مكان أحدٍ، بل لينال ثمرة بقائه في تأمُّل الله (راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس؛ الفصل الثاني – الثامن). وقد نقل الغربيون هذه الفكرة إلى الكنيسة السريانية ومن الكتابات السريانية إلى اللغة العربية وشاعت في القرن الثالث عشر عند لاهوتيي الكنيسة القبطية. وتحمل هذه النظرية تحقيرًا لمكانة الإنسان في خليقة الله لأنه بديلٌ لفاسدٍ وساقطٍ هو الشيطان كما أنها تنطوي على الفكرة الأفلاطونية بأن الانسان خُلِق روحًا في العالم، وهذا هو معنى أن يأخذ الإنسان مكان الشيطان. وحسب تعليم ماني أدرك الشيطان أو إله

الشكرُ لكِ لأن الخليقةَ التي سقطت في فخ الوثنية جاءت إلى معرفة الحق.

الشكرُ لكِ لأن المعمودية تُعطى للمؤمنين، والزيت (الميرون) يجعلهم يبتهجون[١].

الشكرُ لكِ لأن الكنائس تُبنى في العالم كله، والوثنيون في طريقهم إلى الاهتداء.

الشكرُ لكِ لأن الابن الوحيد قد أنار على الذين في الظلمة وظلال الموت.

الشكرُ لكِ لأن الأنبياء تنبأوا والرسل بشَّروا بالخلاص للأمم.

الشكرُ لكِ لأن الأموات عادوا إلى الحياة والملوك يحكمون الآن من أجل الثالوث القدوس.

يا مريمُ أنتِ التسبيحُ الكثير، ولكن، أيَّ إنسانٍ بشريٍّ يستطيع أن ينطق بكرامتها. لأنها أُمٌ وهي عذراءُ دائمًا.

هذه الأعجوبةُ تُسكرني. ولكن ما هو العجب؟ هل سمع أحدٌ ما أن مهندسًا[٢] بنى هيكلًا ثم مُنع من دخوله؟

مَن يجرؤ على أن ينسب المحاباة لله لأنه اختار عبدةً ودعاها أُمه. لذلك العالم كله يفرح".

الشر هدف خلق الانسان كبديلٍ له، فغافلَ إله الخير أو النور ومزج طبيعة الانسان بعناصر شريرة، وهي الجسد فسقط الانسان. ولا تستند هذه النظرية على نصٍّ واحدٍ من نصوص الكتاب المقدس بعهديه. وفي كل كتابات الآباء الشرقيين لم نسمع عنها، وهم أكثر مَن تحدث عن خلق الانسان. لقد رأينا أن نضع هذه الملاحظة حتى لا يظن أحدٌ أن القديس كيرلس السكندري يعلِّم بذات النظرية، وما هو واضح أن الإنسان عاد إلى مكانه أي الفردوس.

(١) الإشارة الى نص مزمور ٤٥: ٧. وفي الطقوس الشرقية يُسمى الميرون عادةً بزيت الابتهاج أو الفرح لأن الروح القدس يهب الفرح.

(٢) حرفياً architect وهو الله الكلمة الذي بنى هيكل الإنسان، أي جسده.

(٤)

+ صلاة[١]: من الكنيسة السريانية الأرثوذكسية

"مباركةٌ أنتِ يا مريم، لأن النبوات قد تحققت فيكِ، وأقوالُ الأنبياء الغامضة قد شُرِحَت.

أخبرَ عنكِ موسى بالعليقة المشتعلة وبالسحابة، ويعقوب بالسُّلَّم الممتد إلى السماء. وداود بتابوت العهد. وحزقيال بالباب المختوم والمغلق.

ولكن عندما ولدتِ، كانت كلماتُهم السريةُ قد شُرِحَت.

المجد للآب الذي أرسل ابنه الوحيد، وأعلن عن نفسه بالتجسُّد من العذراء مريم لكي يردَّنا من الضلال ويجعل ذكرى مريم مجيدةً في السماء وعلى الأرض".

+ + +

(١) كنيسة قنسرين بجوار حلب في القطر العربي السوري. والصلاة مكتوبةٌ بالسريانية وتُرجمت إلى كل اللغات الأوروبية. وتعود إلى القرن السابع. وتعكس لغةً مماثلةً في الكنيسة القبطية.